

بِلَادُ الرُّومِ

قبل الفتح الاسلامي وفي ايامه

- ٢ -

اللواء الركن محمود سبت قطاب

(عضو الجمع)

١ - القوات البرية :

اولا التنظيم :

تطور جيش الروم بالتدرج اسوة بالجيوش العالمية الاخرى ، فقد كان الناس في اوائل ادوار تمدنهم قبائل يدافع عنها القادرون على حمل السلاح من رجالها ، فاذا مهدد القبيلة خطر عسكري ، اجتمع رجالها بلا ترتيب ولا نظام ، وبعد المعركة ينال كل فرد من افراد القبيلة من الغنية ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة شكيته وتهاذ شخصيته . ولما تحضر الناس وتقاسوا الأعمال ونشأت الدول ، كان من اقدم المهن عندهم الكهانة والجندي .

واول دولة ظلمت الجند على اسس تنظيمية ثابتة هي الدولة الفرعونية في مصر ، فقد جندت جنداً من الزوج والاحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد ، اخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر ، ثم اتشر امر التجنيد في الدول القديمة : الآشورية ، والبابلية والفينيقية واليونانية والرومانية والفارسية ... الخ ...

وكان نظام جيش الفراعنة هو نظام الصفوف المتعاقبة المتراسة ، والمشهور

اللواء الركن محمود شيت خطاب

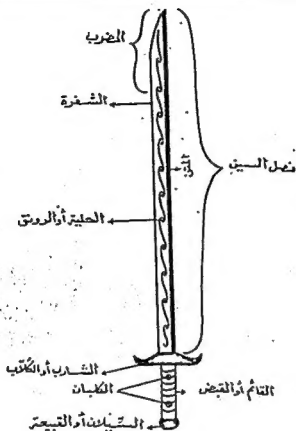
أن رمسيس الثاني هو منظم الجيش المصري على هذا النظام المعروف .
 واقتبس اليونان نظام الجند المصري ونوعوه ، فأنشأوا نظام الفرق ،
 حيث تتراص الجنود صفوفاً متعاقبة ، وكانت الفرقة مؤلفة من أربعة آلاف
 رجل ، يصطف رجالها الواحد بجانب الآخر على بضعة أقدام في صفوف
 متعاقبة الواحد وراء الآخر ، فجعلها فيليب المقدوني ضحني ذلك ، ثم جعلها
 ابنه الاسكندر أربعة أضعاف ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتناس أكتافهم
 وتربط تروسهم ، ثم اصطنع لهم رماحاً طول بعضها أربعة وعشرون قدماً .
 وفي هذا النظام تكون رماح الصف الأمامي قصيرة ، ورماح الصف الذي وراء
 الصف الأول أطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو
 الإمام . وكان فيليب قد ظم فرقة من الفرسان ، فأضاف إليها ابنه الاسكندر
 آلات الحرب ومن جعلتها المنجنيق ، وبهذا التنظيم تغلب الاسكندر على كثير
 من الجيوش في كثير من المارك قبل الميلاد بأربعة قرون .

فلما نشأت دولة الروم ، اقتبست نظام الفرق من اليونان ، وأدخلته في
 تنظيم جيشها البري .

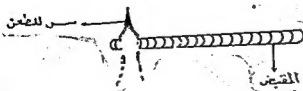
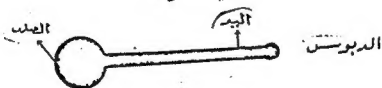
كان الجيش البيزنطي منظماً في فرق ، تعداد كل فرقة عشرة آلاف
 جندي^(١) ، تألف الفرقة من ثلاث طبقات من المقاتلين : الشباب ومنهم يتألف
 الصف الأول في الحرب ، والكهول في الصف الثاني ، وأهل الدربة والحكمة
 في الصف الثالث والصفوف المتعاقبة الأخرى ، وكان يلحق بكل فرقة من المشاة
 كتيبة من الفرسان تسليح بالسهام والمقاليق والمزاريق^(٢) لـمـشاغلة الأعداء في

(١) في رواية ، أن تعداد الفرقة ستة آلاف جندي ، ويبدو أن التنظيم مرن ،
 فهو بين العشرة آلاف والستة آلاف .

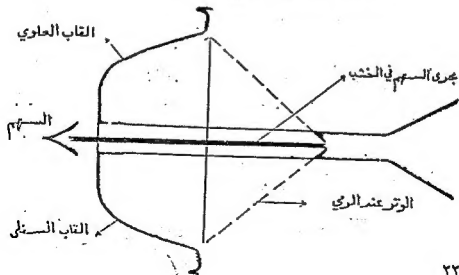
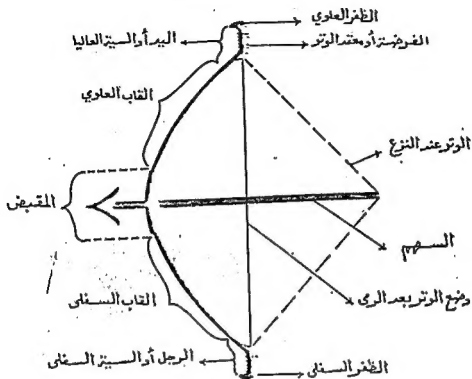
(٢) المزاريق : جمع مزراق . والمزراق : الرمح القصير .



السيف



القوس



حرب المشاة ، ولأجراء الاستطلاع قبل الاصطدام بالقوات المعادية ، ولحماية المشاة قبل الاصطدام بالعدو وأثناءه ، وللقيام بالمطاردة السريعة بعد هزيمة الأعداء .

وكانت كل فرقة من فرق المشاة تضم عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق^(٢) ، وقد قسم الروم الفرقة الى قسمين : كل قسم مؤلف من خمسة آلاف رجل بقيادة (طومرخان^(٤) Turmarch) ، وهو ما يشابه تنظيم اللواء في العصر الحديث ، أي أن كل فرقة بيزنطية مؤلفة من لواءين ، تعداد كل لواء خمسة آلاف مقاتل .

وقسموا كل لواء الى خمسة كراديس^(٥) ، تعداد كل كردوس ألف رجل ، بقيادة قائد اللواء (طرنجارية^(٦) Drungairs)

وقسموا كل كردوس الى خمس سرايا ، كل سرية مؤلفة من مائتي رجل^(٧) ، بقيادة (قومس^(٨)) .

وقسموا كل سرية الى خمس فصائل ، كل فصيلة مؤلفة من أربعين

(٢) البطريق : من اشراف الروم يحمل رتبة عسكرية هي رتبة قائد فرقة ، ويشابه في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء .

(٤) طومرخان : قائد لواء يحمل رتبة عسكرية ، تشابه رتبة قائد لواء في الوقت الحاضر برتبة عميد أو عقيد .

(٥) الكراديس : جمع كردوس ، وهي كلمة يونانية معربة استعملها العرب ، ومعناها : ألف جندي . والكردوس يشابه تنظيم الوحدة أو الفوج في المشاة والكتيبة في الخيالة بالنسبة للتنظيم الحديث .

(٦) طرنجارية : يشابه قائد وحدة ، فوج أو كتيبة في التنظيم الحديث ، الذي يكون برتبة مقدم .

(٧) يشابه تنظيم السرية في الوقت الحاضر .

(٨) قومس : يشابه قائد سرية في الوقت الحاضر الذي يكون برتبة نقيب أو رائد .

رجالاً (٩) بقيادة (قمرطخ) (١٠) .

وقسموا كل فصيلة الى أربع حضائر ، كل حضيرة مؤلفة من عشرة جنود بقيادة (الدمرداغ) وهو ضابط صف (انظر المخططات المرفقة) .

هذا هو مجمل تنظيم جيش الروم البري حين ظهر الاسلام وفي أيام الفتح الاسلامي على عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، لذلك قسم خالد بن الوليد رضى الله عنه جيشه الى كرايس في معركة اليرموك الحاسنة سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤ م) ، وهي تعبئة لم تبعها العرب من قبل (١١) ، وقسم الكرديوس الى عشرة أقسام ، على كل قسم (تقيب) ، وقسم كل قسم من تلك الأقسام الى عشرة أقسام فرعية ، على كل قسم منها (عرف) .

ولو لم يطور المسلمون تنظيم جيشهم في معركة اليرموك ، لكان من المشكوك فيه أن يتصروا ، لأن الروم كانوا متفوقين عليهم فواقعاً ساحقاً .

ثانياً . التسليح :

كان الفرسان والمشاة في جيش الروم ، يقسمون الى فرق خفيفة السلاح ، وفرق ثقيلة السلاح .

وكان الفارس ذو السلاح الثقيل يلبس الخوذة الفولاذية ودرعاً من الزرد يكسوه من رقبته الى فخذه وقناراً من الحديد وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة يرتديها فوق سلاحه سيفاً وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها شتاء . وكان سلاحه سيفاً عريضاً وخنجرأ ورمحاً وقوساً للرماية

(٩) يشابه تنظيم الفصيلة في الوقت الحاضر التي تكون بقيادة ملازم .

(١٠) قمرطخ : رتبة عسكرية لقائد الفصيلة ، تشابه رتبة الملازم في الجيوش الحديثة .

(١١) الطبري (٣/٣٩٦) وابن الأثير (٢/٤١١) .



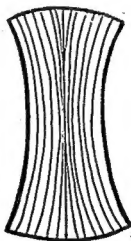
الخوذة



الدرع حلقات منصوبة - الدرع البتراء



الزمن القريب



الزمن المستطيل

وجعبة (١٢) للسهم .

وإذا كان الفارس ممن يقتون في الصفوف الأمامية ويقوم بالهجوم ، وضعت دروع فولاذية على صدر حصانه وعصابت فولاذية على جبهته .
وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة ، ويرتدى سترة من الزرد .

أما الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الثقيلة ، فيرتدون دروعاً من الزرد تغلى انصاف أجسادهم العليا وخوداً فولاذية . وكانت أسلحتهم السيوف والرمح وفأساً لها نصل قاطع من ناحية وسن مدببة من ناحية أخرى .

وكان الجنود المشاة المسلحون بالأسلحة الخفيفة ، من الرماة بالقوس ، أو من الذين يطعنون بالحرايب ، ويلبسون قمصاناً طويلة من الزرد تصل الى الركب أو دروعاً خفيفة في بعض الأحيان ، ويحصلون جمعاً للسهم فيها أربعون سهماً ، ويحصلون قوساً في أحزمتهم ، وكانوا يملقون على ظهورهم تروساً صغيرة مستديرة .

وكان للروم آلات ثقيلة كالبرج والعرادة (١٣) والدبابية والكبش ، تحل بجانب متاع الجيش على الحيوانات أو العجلات .

وينب أن كلمة : (برج) مشتقة من اليونانية ، وقد وضعت لبرج متحرك شيد من الخشب ومغشى بالجلد والحديد ، وكان يستعمل للاقترب من الحصون والمدن المنيع لاقتحامها ولقذف السهام أو الاحجار أو أية مقذوفات أخرى . وفي معظم الأحيان يُجرى البرج على العجلات الخشبية أو الحديدية

(١٢) الجعة : وعاء السهام والتبال .

(١٣) العرادة : آلة من آلات الحرب القديمة ، وهي منجنيق صغير .

أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة أدوار فوق بعضها يوصل إليها بدرجات من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن القاؤها على الحصن أو السور ليرقى عليها الجنود في هجومهم على العدو .

والمرادة آلة أصغر من المنجنيق ، تلقى بها الحجارة على أبعاد كبيرة ، وقسرها الترس وعرفها كثير من الأقوام الأخرى أيضاً .

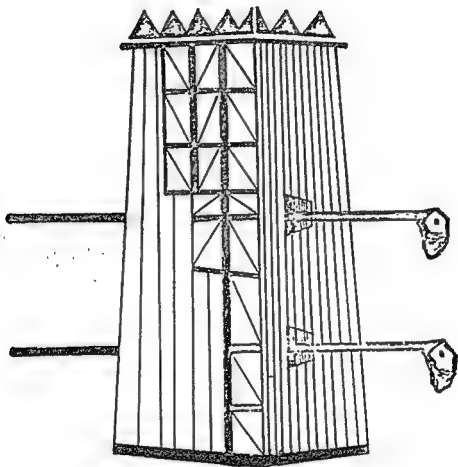
والدبابة آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال ، فيدبّون بها الأسوار ليقتربوا ، وهي برج متحرك له أحياناً أربعة أدوار : أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر . وتصعد إلى طبقات الدبابة الجنود لثقب الحصون وتسلق الأسوار ، وكانت الدبابات تسبق المشاة حتى تقترب إلى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو حصونه ، وهناك تعمل عملها في قذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال . وكان القادة يخصصون عدداً من الجنود للسير خلف الدبابة ، حتى يسوّوا طريقها ويزيلوا الموانع التي يضمنها العدو في طريقها .

والضبر^(١٤) ، وجمعه : ضبور ، مثل رؤوس الاسفاط ، يتقى بها في الحرب ، وهي جلد ينشئ خشباً ، يكمن تحته الرجال عند الهجوم أو الانسحاب ، ويحتمون به في تقدمهم إلى الحصون لدق جدرانها أو نقبها .

والعيار^(١٥) قنبلة من الجلد أو القماش قوية قليلة المرض مطوية ، تسك من طرفيها ، ويوضع الحجر أو الحصة أو قطع الحديد أو الرصاص المصوب نحو الهدف في وسطها .

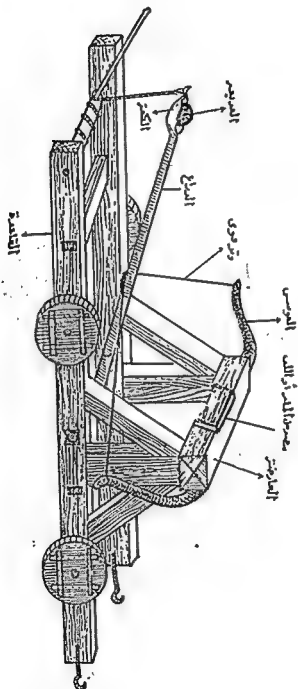
(١٤) الضبر : الدبابة كانت تتخذ من الخشب يخشى بالجلد ، يحمي به الرجال ويتقدمون إلى الحصون لدق جدرانها ونقبها .

(١٥) العيار : مأخوذة منها كلمة : العيار الناري ، وهي قذيفة تطلق من المدس ونحوه .



الركبش

اللواء الركن محمود شيت خطاب



والمقلاع (١٦) مكون من كفة توضع فيها القذيفة مربوطة بثلاثة جبال أو سيور متينة ، تمسك من أطرافها ، وبعد تدويرها مرارا باليد يفلت طرف واحد من الجبال أو السيور المذكورة ، فيقتذف ما في الكفة الى بعد شاسع بقوة واندفاع .

والكبش (١٧) آلة من خشب وحديد ، تجر بنوع من الجبال ، فتدق الحائط فينهدم . وأصل الكبش دبابة ولكن له رأس في مقدمه مثل رأس الكبش ، يتصل داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بجبال ، تجرى على بكره معلقة بقتف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون داخل الكبش مع آخرين استروا بدروعه ووقتوا خلفه ، على ضرب السور حتى يخرقوه .

والمنجنيق آلة قديمة من آلات الحصار ، كانت ترمى بها حجارة ثقيلة أو حديد أو نار على الأسوار فتهدمها أو تحرقها .

ومن المجانيق أنواع لرمي السهام التي توضع في المنجنيق ، وترمى عنها بالاقواس الى مسافات بعيدة وقوة خارقة . وأخرى لرمي الحجارة حتى تهدم الحصون ، وثالثة لرمي قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النيران الاغريقية . والنفطاة أداة يرمى بها النفط ، لاحتراق ما يمكن احتراقه من خيام العدو ومعسكراته وأبنيته وحصونه وملاجئه .

ثالثا . الأسلحة (١٨) :

المشاة : وهم الذين يسرون على أقدامهم ، ويكون أكثر الجيش البري

(١٦) المقلاع : ما يرمى به الحجر .

(١٧) الكبش : آلة من آلات الحرب ، كانت تستعمل في الحصار ، لتدف الحصون .

(١٨) أسلحة الجيش : المصطلح العسكري الذي يراد به : صنوف الجيش .

مؤلفا من سلاح المشاة ، وقديما قالوا : « المشاة سيد الاسلحة » .

والفرسان أو الخيالة ، هم الذين يتطون الخيول ويتدربون على التروسية ، والقتال على الخيول كرا وفرا ، ويتعلمون حماية المشاة في مسير الاقتراب ، والهجوم بالخيول ، والاستطلاع قبل القتال وفي أثناءه وبعده ، وحماية المشاة في الانسحاب ، والقيام بالمباردة . ويعتمد هذا السلاح على سرعة الحركة ، وعلى المباغتة ، وعلى التأثير المعنوي على العدو .

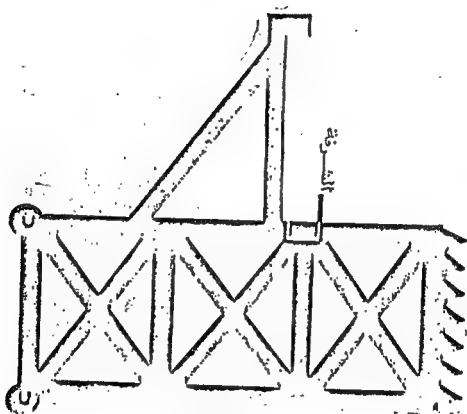
والمهندسون ، وهم الفنيون الذين يشرفون على آلات الحصار ، ويرافقون الجيش لتمهيد الطرق واستطلاع المعابر واقامة القناطر والجسور ، وانشاء الاستحكامات ، وتدمير حصون واستحكامات الأعداء .

والنفاطة ، وهم الذين يقذفون النبط على العدو ، وينفذون وسائله للقذف ، وللنفاط ثوب خاص يرتديه كي لا يصاب بأذى من النبط .

والسيافة ، وهم المدربون على استعمال السيوف راكبا وراجلا في قتال العدو ، والماهرون منهم في استعمال السيف ، هم الذين يبادرون بالخروج الى المبارزة .

والرماحة ، وهم المسلحون بالرماح ، الذين يتقنون استخدامها في القتال . والنشابة ، وهم المدربون على رمي السهام . والماهرون في اصابة أهدافهم اصابات دقيقة هم الرماة ، ويستعان بهم في الرصد وقتل قادة العدو ورجالاته ، وفي اصابة حراس الأسوار والحصون ، ولهم ميزة خاصة وحظوة دون سائر أقرانهم عند قادتهم .

والمنجنيقيون ، وهم المدربون على تشغيل المنجنيق واستخدامه ، وتشغيل أشباهه واستخدامه في ميادين القتال .



الديابة

الواء الركن محمود شيت خطاب

وسلاح الاشارة ، وهم الذين يؤمنون الاتصال بين القائد وقواته داخليا ،
وبين تلك القوات ومقراتها العليا خارجيا .

وسلاح النقل ، وهم الذين ينقلون السلاح والذخيرة والتموين ومواد
العينة والقضايا الاخرى من قواعد الجيش الى ساحات القتال ، وينقلونها
من ساحات القتال الى قواعدها ، ويظنون الخسائر من الخطوط الامامية الى
المستشفيات .

والاطباء ، وهم المسؤولون عن معالجة المرضى والجرحى من أفراد الجيش ،
ويشرفون على اخلائهم الى الخلف .

والمرضى ، وهم الذين يعاونون الاطباء في حمل رسالتهم الطبية ،
وينوبون عنهم في معالجة المرضى والجرحى عند غيابهم أو عدم تيسرهم .

والبيطرة ، وهم المسؤولون عن علاج الخيل والبغال وحيوانات النقل
الاخرى .

ورجال الدين ، وهم المسؤولون عن غرس العقيدة وشحذها والتحريض
على القتال ورفع المعنويات بين المحاربين من رجالهم .

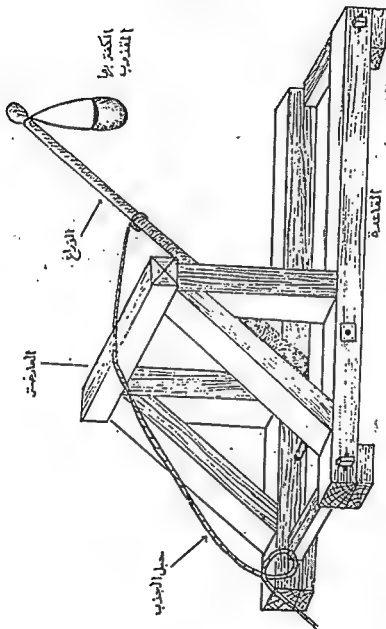
وسلاح الميرة والتموين ، وهم المسؤولون عن التمرين للمقاتلين وحيوانات
نقلهم ، وتزويدهم بما يلزمون ويشربون .

وسلاح العينة ، وهم المسؤولون عن السلاح والذخيرة والتجهيزات
والمواد الاخرى .

رابعا . التعبئة :

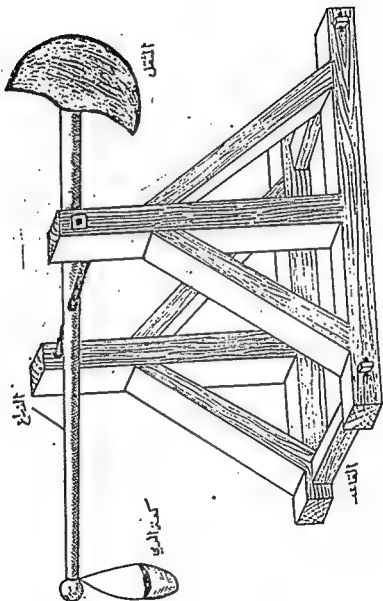
كان الروم يتمددون الحذر والحيطة في قتالهم ، وكلما يبادرون الى

المنجنيق



اللواء الركن محمود شيت خطاب

المنجنيق



- اتخاذ الأساليب الخطرة في الحرب وممارسة المجازفة في القتال .
- وكان شعارهم الحربي : أقصى المكاسب ، بأقل الخسائر .

وكان على القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للعمليات العسكرية قبل المشاركة في أي اشتباك حربي ، فالهرب المصطنع ، والمباغتة ، والهجوم الليلي ، والكائن ، والتظاهر بحضور المدد الكبير ، وإبراز أعداد مبالغ بها في حماية الأسوار عند محاصرة المدن والحصون ، والمناوشات الطويلة لكسب الوقت ، كل هذه الأساليب وأشباهها وسائل مقبولة في الجيش البيزنطي ، ويجري التدريب عليها نظريا وعليا وممارستها .

وكان الجندي الذي يعتمد على القوة - يث يغنى الدهاء في كسب النصر ، يعتبر أبله وجنديا لا كفاية له ، ولا بأس بإرسال خطابات مربية لقادة العدو ، لبذر الشقاق بينهم وبين قادتهم ، كما أنه لا بأس بإخبار الجند باتصارات وهمية لرفع معنوياتهم .

وكانت قوة الروم في أجهزة مخابراتهم ، فقد جعلوا شغلهم الشاغل دراسة سبل عدوهم في الحرب ، ومواجهتها بأفضل الطرق واستحصل أدق تفاصيل المعلومات عن عدوهم .

وكان للروم مقدرة عالية في الحصار ، ولهم قواعد خاصة تختلف تبعا لنوع البرج المحاصر والبيئة المحيطة به ، وكانت هذه القواعد تطبق ، ولكنها لم تكن جامدة ، بل تتسم بالمرونة .

وكانت قوة جيش الروم في خياله الثقيلة ، وكان نظامه العسكري محكما ، وخدماته الادارية جيدة وذات كفاية .

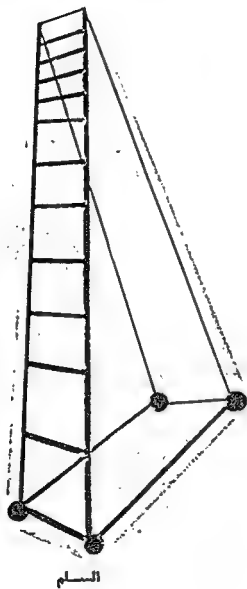
وكانت له فرق طبية خاصة ، وكان الفرسان التابعون للخدمات الطبية ،

يحلون الجرحى من ميدان المعركة الى أطباء الجيش في المؤخرة .
كما أن سلاح هندسة الروم مترس على ازالة العقبات الطبيعية ، له
خبرة جيدة بازالتها ، قادر على اقامة المعابر والتناطير والجسور ، وترميم
الأسوار والحصون وادامتها اذا أصابها العطب .

وكانت له أساليب معلومة في اختيار المعسكرات وحمايتها ، وتعاليم
خاصة في سير الاقتراب وفي الدفاع والهجوم والانححاب والمطاردة ، وفي
زرع الكمائن والربايا في الحروب للجبلية .

وكان يتم كثيرا بتطبيق مبدأ : (الأمن) لقواته المحاربة ، كما يتم
ببدا : (حشد القوى) و (رفع المعنويات) و (تأمين القضايا الادارية) .
وكان للروم مؤلفات فنية عسكرية ، يملكون ما جاء فيها ، ويتدربون
تدريباً عسكرياً على العمل بموجب مبادئها وتفاصيلها ، ويطبقون محتوياتها
بحرص وكفاية .

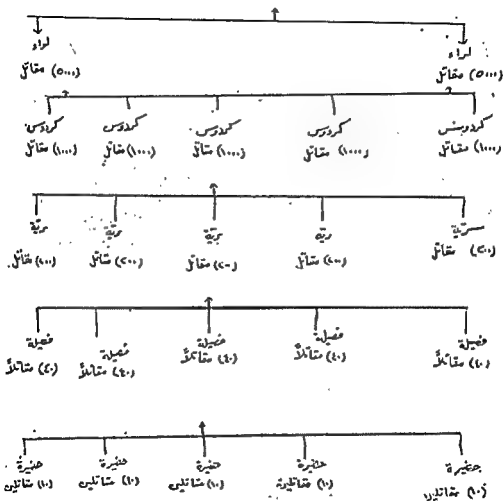
لقد كانت للروم فنون تعبوية معروفة من الناحيتين النظرية والعملية ،
وكان مجموع الجيوش البرية النظامية في القرن التاسع الميلادي مائة وعشرين
ألفاً ، ويقدر في زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفاً . وكان سكان الولايات
الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش العاملة فيها ، ومعلوماتنا عن الجيوش
المحلية في الولايات قليلة لا تكفي لاعطاء صورة وافية عن تعدادها وتنظيمها ،
ولكن الجيوش المحلية كانت أقل تدريباً وكفاية من الجيوش النظامية ، وكان
نظام منح الارض ظهير الخدمة العسكرية الذي طبق في القرن الميلادي على
حرس الحدود ، قد ظهر ثانية واتسع نطاقه في الولايات الثغرية ، وكان لا يجوز
انتقال هذه المنح ، لان منحها كان يتضمن الزاماً بالخدمة في الجيش يرثه الابن
عن أبيه ، فكانت الجندية من المهد الى اللحد ، يرثها الخلف عن السلف . لقد
كانت القوى العسكرية مصدر قوة الدولة الحقيقية دون منازع .



تنظيم قوات الروم البرية

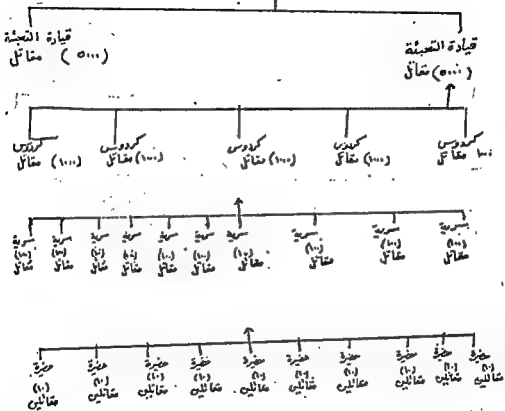
الفرقة

(۱۰۰۰) مقاتل



تنظيم قوات المسلمين البرية

الجيش
(١٠٠٠٠) مقاتل أو أكثر



ملاحظة

لم يكن اسم الحزبة بلقب عائلة النبوية الصغيرة المؤلفة من عشرة مقاتلين في العهد الإسلامي الأول، ولقد
وُسِّمَها للأطباع نطفة، لهذا استعملت التسمية.

قيادات قوات الروم البرية ومقارنتها

بقيادات قوات المسلمين البرية على عهد الخلفاء الراشدين

وعهد الدولة الأموية ، وقيادات قوات الجيوش البرية الحديثة

الرتبة الحديثة	قيادة المسلمين	قيادة الروم	عدد المقاتلين	العدد
لواء	أمير الجيش	بليغ	١٠٠٠٠	١
عميد أو عقيد	أمير التعبئة	طورخان	٥٠٠	٢
مقدم	أمير الكندس	لحنجارية	١٠٠٠	٣
رائد أو نقيب	قائد السرية	القوس	٢٠٠	٤
—	نقيب	—	١٠٠	٥
ملازم	—	الفرسخ	٤٠	٦
رقيب	عريف	الدرداخ	١٠	٧

ب - القوة البحرية :

اعتبر الروم القوة البحرية أقل أهمية من الجيوش البرية ، وقد اتجهت رومة الجمهورية الى البحر مكرهه ، ويصدق الحكم نفسه على الامبراطورية البيزنطية ، فقد بنى الأسطول الروماني تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقى عليه ليقوم بمراقبة البحار ، ولقمع القراصنة ، وحماية واردات الحبوب المنقولة لرومة والقسطنطينية .

وقد اعتمد حكام القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين في الدفاع البري عن مستلكاتهم على التحصينات الضخمة والمراكز القوية التي أقاموها على حدودهم وفي داخل أراضيهم جريا على سياسة الروم التقليدية ، ولكن البيزنطيين وسعوا مجال التحصينات وزودوها بحاميات نظامية ، مع الاستعانة بقوات من الجنود المحليين أو المعاهدين من مستوطني الريف المجاور . وهكذا كانت المنظومة الدفاعية في مناطق البحر الأبيض المتوسط حتى فتوح المسلمين تقتصر على الاكتفاء بقوات صغيرة من الجنود المحترفين ، تشد أزر قوات الدفاع المحلية في مناطق الخطر .

ولكنه كان للروم في القرن السابع الميلادي قواعد بحرية ودور للصناعة في قرطاجنة وعكا والاسكندرية والقسطنطينية ، حيث تم بناء كثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة بجانب قواعد أخرى في سرقوسة بصقلية وفي سبته وجزر البليار . اذ بدأت الدولة يبنئ أسطولها حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية ، واضطرت بسبب نشاط معاوية بن أبي سفيان البحري الى الشروع في بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة ، فظهرت خلال القرن السابع الميلادي قيادة بحرية واحدة غليا ، وهي قيادة أميرال (أمير البحر) ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال (نائب أميرال

(نائب أمير البحر) ، كما كانت ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ، ولكن ليو الثالث بعد حصار المسلمين للقسطنطينية ، اعتمد في قوته على جيش آسيا الصغرى البري ، وكذلك فعل خلفه قسطنطين الخامس .

وكان سبب الغاء القيادة العليا الموحدة للأسطول ، هو أن الأسطول نادى بنائب الأميرال امبراطورا سنة (٦٩٧ م) وأسقط الأمبراطور سنة (٧١٣ م) وسنة (٧١٦ م) ، مما أدى الى اضعاف الأسطول البيزنطي خوفاً على العرش من قادة الأسطول .

والراجع أنه كان للدولة أساطيل اقليمية تشبه أساطيل الامبراطورية . وفي الحرب كانت الدولة تميز أسطولها بعدد من السفن التجارية ، لنقل الجنود والامدادات والأسلحة والذخيرة والمواد .

ولم تواجه البحرية البيزنطية عدواً خطراً حتى ظهور الأسطول الاسلامي ، فتغيرت تنظيمات البحرية البيزنطية على أثر ضغط الهجمات الاسلامية في القرنين السابع والثامن ، فوضع على رأس كل اقليم قائد حربي له السلطة الحربية والمدنية معاً ، فأناح ذلك وسائل فعالة للدفاع ، وقد طبق هذا التنظيم في البحرية والجيش البري معاً .

كان تنظيم القوة البحرية البيزنطية في صورته الأخيرة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين عبارة عن أسطول حربي ، قوامه أسطول مركزي امبراطوري في القسطنطينية بقيادة القائد الأعلى للبحرية مباشرة أو عن طريق نائب للقائد الأعلى . وهناك أسطولان اقليميان في الشرق هما أسطول بحر ايجة وأسطول جنوب آسيا الصغرى ، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أمير البحر (عميد بحري) ، والى جانبهما قطع بحرية صغيرة في بلاد الشرق . وفي الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، رابط الأسطولان

الاقليسيان الرئيسان في صقيلة وفي رافنا ، ويحتمل وجود أسطول اقليسي ثالث في افريقية حتى الفتح الاسلامي لهذه البلاد . وقد احتفظ الأسطول البحري الامبراطوري وكل أسطول اقليمي بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والتجارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي تقيم فيها الأساطيل (١٩) .

مما تقدم ، يظهر أن بحرية الروم كانت تتألف من بحرية تابعة للامبراطورية ، وهي جامزة لدعم البحرية الاقليمية ، تتحرك لنجدتها عند الحاجة ، وهي بسيطرة مركزية بقيادة قائد أعلى بحري ، يتسلم أوامره من الامبراطورية مباشرة . لذلك فإن هذه البحرية تكون بحرية سوقية ، وتكون احتياطاً عاماً للبحرية الاقليمية ، تتدخل في الحروب التي لا تستطيع البحرية الاقليمية معالجتها كما ينبغي .

أما الخط الأول من البحرية البيزنطية ، فهي البحرية الاقليمية التي تكون مسؤولة عن المناطق النائية عن العاصمة القسطنطينية ، وهذه البحرية مسؤولة عن احباط الاعتداءات الخارجية باتخاذ الاجراءات الفورية لدرئها ، فاذا استطاعت التغلب عليها فانها لا تطلب سند بحرية الامبراطورية ، والا فانها تستمد عونها وتطالب بسندها .

وهذه البحرية الاقليمية، تتبع الحكام المحليين من الناحية العملية ، ولكنها مسؤولة أمام مرجعها الأعلى في القيادة العليا للبحرية التي مقرها القسطنطينية من الناحية الفنية . لذلك كانت هذه البحرية - بسيطرة غير مركزية - تتلقى أوامرها من الحكام المحليين ، لمعالجة الحروب المحلية ، وقد تتجه من منطلقها لنجدة المناطق المهددة الأخرى بأوامر من القيادة العليا للبحرية البيزنطية . لذلك

(١٩) الحدود الاسلامية البيزنطية - فتحي عثمان (١/٢٢٧ - ٢٢٠) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

كانت البحرية الاقليمية بحرية تعبوية ، أو هي الخط الأول الأمامي للبحرية البيزنطية الامبراطورية .

وحين كانت البحرية البيزنطية أقوى من بحرية الأمم الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط ، جعلت من هذا البحر بحيرة بيزنطية وسيطرت تلك البحرية على الشرق الأوسط .

وحين أصبحت بحرية المسلمين أقوى من بحرية البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط خسر الروم أرض الشام ومصر وشمال افريقية وخسروا الجزيرة وأصبحوا مهددين بعقر دارهم من الفاتحين المسلمين .

إن السيطرة بالبحرية على البحر الأبيض المتوسط ، تؤدي إلى انحraz النصر والسيطرة على منطقة هذا البحر ، كما حدث للفينيقيين واليونان والرومان والروم والعرب في الأزمنة الغابرة وكما هو مسجل في صفحات التاريخ ، وكما حدث في العصور المتأخرة بالنسبة للبرتغال والاسبان وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

لا عجب إذاً ، من تنافس الدول الكبرى في العصور المتعاقبة القديمة والوسطى والحديثة على السيطرة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لأن ذلك يؤدي إلى السيطرة العالمية .

وليس في مقدورنا أن نقدر بالتأكيد القوة التي كان عليها أسطول بيزنطة عادة ، وتدل التفاصيل التي بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة — التي نملك عنها تفاصيل — على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الامبراطوري ، وسبعاً وسبعين من أسطول الولايات ، بينما كان عدد التجارة (٢٣٠٠٠ — ٢٤٠٠٠) من تجارة الامبراطورية و (١٧٥٠٠) من تجارة الولايات .

ويظهر أن عدد سفن الأسطول التي أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث (٨٥٨م - ٨٥٩م) بلغ عددها ثلاثمائة مركب . وكان رجال السفن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن المتبررين المستقرين في أرض الدولة مثل : (الماردائيين Mardates)^(٢٠) ومن المرتزة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة في الأسطول ، كما يظهر ، زمن الاسرة المقدونية . ويبدو من كتاب : (Tactica) أي الفنون الحربية الذي كتبه ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنودا . ولكننا نلاحظ في حملة سنة (٩٠٢م) أن جنود الأسطول كانوا شيئا آخر غير المجدفين ، وكانت السفن المسماة (درموند Dromonds) وهي السفن الكبيرة في العصور الوسطى ، واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية : (dromos) أي الفينة ، كانت هذه السفن تبنى في الغالب بصفين من المجاديف^(٢١) ، وتحمل فوق المائة رجل في الغالب وفيها سبعمون من جنود البحر ، والباقون من المجدفين والملاحين .

وبجانب ذلك ، كان هناك سفن ذات طراز مختلف ، منها ما هو أكثر سرعة يسمى : (Pamphylus, Pamphylis) ، وهي ذات صفين من المجاديف ، ومن هذا النوع كانت سفينة القيادة التي تحمل العلم ، وهذا النوع من السفن يستعمل في القتال والمطاردة .

(٢٠) الماردائيون : هم جماعة جبلية كانت تسكن فواحي لبنان من قديم الزمان ، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية . فلما فتح المسلمون بلاد الشام تراجعوا الى آسيا الصغرى ، وهناك أقاموا يحاربون في صفوف الدولة البيزنطية ، وظلوا يسببون لخلفاء المسلمين متاعب جمة . وظل الأمر على ذلك حتى عقد عبدالملك بن مروان مع الامبراطور جستنيان الثاني صلحا اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات الماردائيين الى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين . انظر : Vasiliev : op. cit. 1, p. 185.

(٢١) الامبراطورية البيزنطية (١٩٣ - ١٩٤) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

وكانت هناك سفن بصف واحد من المجاديف : (Galleys) تستخدم للاستطلاع ونقل الرسائل ، كما كان الأسطول الامبراطوري والأسطول الاقليمي أو المحلي يستعين بالسفن التجارية عند الحاجة .

وتوضع في مقدمة السفن آلات " تقذف النيران الاغريقية المخيفة ، وكان التجارة يجهزون بقنابل يدوية تحتوي على قصص المادة القاتلة التي كانت تنفجر بقوة ، على الرغم من أنها كانت لا تأتي بالنتائج التدميرية المرجوة ، ولكنها على كل حال تؤثر في المعنويات تأثيراً عظيماً ، أو ترسل تلك النيران بأوعية خلال الهواء بالمنجنيقات ، وربما استخدمت قذائف في دفع مواد سريعة الالتصاق خلال أنابيب باتجاه أهداف بعيدة . وقد حفظ تركيب النار الاغريقية سرّاً مصنوعاً ، وكانت لها مخازن ومستودعات في المدن البحرية الكبرى .

وتسم سياسة الروم البحرية في القتال ، بنفس الحذر الذي كانت تتسم به خططهم العسكرية التعبوية منها والسوقية ، فقد كان أمير البحر في الدولة الشرقية لا يحارب الا اذا كانت جميع الظروف مواتية له ، أو اذا رأى أنه لا بد من الحرب لحماية إحدى مقاطعات الروم . غير أنه لا سبيل الى الشك في أن الملاحين لا يعتمد عليهم في الغالب ، وكان أهم ما يُشغل بال أمير البحر هو أن يدبر أمره في حالة ما اذا هدده الجنود بالانقضاض من حوله (٢٢) .

وليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحري عند الروم ،

(٢٢) الامبراطورية البيزنطية (١٦٤) ، لان جنود السفن يتكونون من رعايا الامبراطورية ومن الفرنج والروم والافريقيين ومن المرتزقة الاجانب مثل الروس ، والروم الشرقيون وحدهم كانوا من الذين يعتمد على اخلاصهم وولائهم ، لالتزامهم بالدفاع عن وطنهم وممتلكاتهم ، أما غيرهم فلا التزام يشدهم الى الحرب غير الارتزاق ، وهذا يتبخر عند الخطر .

ولكن ما وصل إلينا يدل على توجيههم نفس العناية الدقيقة التي كانوا يوجهونها إلى علوم العمليات البرية في الجيوش البرية البيزنطية ، إلى مبادئ الحرب البحرية وفنون القتال البحري . فقد درس أمراء البحر البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للسواحل والبحار والجزر ، وخصائص الرياح بأنواعها والمد والجزر ، وأتقنوا فن الخطط والعمليات البحرية ، وجهوا إلى فنون الاستطلاع والحصول على المعلومات من مصادرها بشتى الوسائل والاتصالات والإشارات اهتماماً يعادل اهتمام المحاربين في البر . وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحري ، فقد ظل الأسطول مجالاً للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره ، فكان الجندي البري يتقدم البحار دائماً ، ولم تكن رومة الجديدة في هذه الناحية بالذات كما رأينا ، إلا محافظة على تقاليد العاصمة الغربية القديمة .

وكان رجال البحر — كما هو الحال في رجال البر ، يتكونون من أسلحة مختلفة : رماة ، ومنجنيقون ، وقناصة ، ومهندسون ، وألباء ، ومرضون ، وأرباب حرف ، وإداريون لتصليح السفن وإدامتها ، ومجدفون مدربون على الجذف المتواصل الطويل ، الذين مارسوا واجباتهم ، ولهم قابلية على الاستمرار في عملهم مدة طويلة دون كلل أو ملل .

ولكن الأسطول البيزنطي أخذ يتداعى خلال القرن الحادي عشر الميلادي ، ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا إلى ساحل آسيا الصغرى الغربي خلال العقد السابع من هذا القرن ، وشاعت الفوضى في الولايات التي كان يجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية ، لأنه ثبت للحكومة المركزية أن القيادة البحرية العليا كانت دافعاً قوياً لمن يحملها ويحوزها على التفكير في اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذا العامل كان له أثر كبير في الهبوط بالقوة البحرية .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

ولو قدر للقسطنطينية أن يكون لها أسطول قادر ، لتوجهت الحملة الصليبية الى مصر لا الى القسطنطينية ، وبالرغم من أنه توفر للامبراطورية حينما اتعتشت بعد ذلك ، في ظل باليولوجس (١٢٥٨م - ١٢٨٢م) ، اسطول نشيط على صفره ، الا أن الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدابر الى غير رجعة (٢٣) .

٦ - الفكر البيزنطي :

أ - التعليم :

ربما كان الرهبان والقسس البسطاء ، يرون في المعارف القديمة شراكا من شراك الشيطان ، ولكن أبدى أباطرة متلاحقون رغبة في رعاية الجامعات وترقيتها ، وفي زيادة عدد المدرسين ، وفي انشاء المكتبات ، وجمع مخطوطات الآداب القديمة .

وفي القرن الرابع الميلادي ، كان يتدرج الشاب من الطبقة العليا في مراحل التعليم ، فيبدأ الصبي يتعلم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره . وفي العاشرة أو الثانية عشرة كان ينصرف الى دراسة النحو ، ولا يقتصر النحو على تعريف الاسماء والافعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم الى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . وحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية ، ويبين المعنى المراد ، وتعرف قيمته الأدبية ، وكانت تستعمل لهذا المعجمات والشروح والكتب ذات الحواشي والتعليقات . وكانت الروايات المحزنة والمضحكة تقرأ كذلك ، ولم يتعرض أي أب من الآباء على الفحص الكبير الذي يرد في روايات الهزليين .

(٢٣) الامبراطورية البيزنطية (١٩١ - ١٩٢) .

وفي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان الولد يهجر النحو الى البلاغة ، وكان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين من كتاب النثر بخاصة ، وكان الأستاذ يقرأ مثالا مختاراً من أسلوب انشائي معين بصوت مرتفع ، ويطلب الى التلاميذ أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله . وفي ذلك العصر السذي كانت الثقافة فيه تركز في المراسلات ، كان لابد من دراسة منفصلة لفن كتابة الرسائل . وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع في المدرسة ، اذ لابد للرسالة من أن تبرز شخصية الكاتب ، وأن تكون قصيرة مصوغة بأسلوب بليغ صاف . وكان لابد من أن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثال الكثيرة . وكان الاهتمام في الكتابة ينصب على المبنى أولاً ، وأما المعنى فأهميته أقل من المبنى ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك المدة متكلفة خالية من العنصر الانشائي ، وأنها قد تنحط في كثير من الأحيان الى عرض يدل على اطلاع واسع ولكنه جامد لا حياة فيه .

وكانت السنة المدرسية تبدأ في الخريف ، وتدوم دون انقطاع حتى بداية الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر في فصل الحر . وكانت الدروس تدرس في الصباح ، كما كان بعض الطلاب الكبار يستمعون الى المحاضرات بعد الظهر . وفي أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها ، كانت المدارس تغلق أبوابها ، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات في دار التثليل ، وحتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر من أن يتردد الطلاب على دور التثليل . وكانت تفرد أيام للخطابة بين حين وآخر ، يلقي فيها ذوو الكفايات الخطابية من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لساعها الأصدقاء والآباء . وكثيراً ما كان الطلاب يترئون الكسل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم .

وكانت جامعة أثينا مازال في القرن الرابع الميلادي أشهر مركز لدراسات

اللواء الركن محمود شيت خطاب

البلاغة ، والى تلك الجامعة يمزى ما كان قد بقى لها من الأهمية . وكان الطلاب القادمون من نواحي الامبراطورية المختلفة يسيرون بالطبيعة الى أن يدرسوا على أساتذة من بنى جلدتهم ، وكان أساتذة الفلسفة في الغالب غرباء . وكان الأساتذة أعداء بعضهم بعضاً في كل مكان ، حتى ان قسماً منهم يرى واجباً على طلابهم أن يجعلوا عيش زملائهم منفصلاً ما أمكن ذلك . وكان تلاميذ كل أستاذ للفلسفة في أثينا يكونون جماعة متناسكة ، وكانوا يرون أن الاستماع الى أستاذ غيره خيانة كبيرة . وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أضحت المعارك معه تشب بينهم في شوارع أثينا ، وتعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف . وكثيراً ما كانت الدراسة تهمل ، لتحسن الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هي الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدين لتبذيرهم النقود على النساء المنحرفات .

وكان الطلاب يأخذون في دراسة الفلسفة في سن الثامنة عشرة أو العشرين ، وكانت هذه الدراسة تاج التعليم في القرن الرابع الميلادي . وقد كانت الحكومة هي التي تقوم بالاشاق على المعلمين في مدن مثل الاسكندرية والقسطنطينية ، أما في أثينا فقد كانت موارد الجامعة تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفى لسد حاجة الأساتذة ، وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك . ومن الصحيح أن العصر كان ينظر الى العلم الطبيعي نظرة ملؤها الريبة ، فكان المسيحي يرى أن الكتاب المقدس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة ، وكان من السهل أن ينزلق المرء ويؤخذ في تيار آراء منحرفة عن الدين . حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئاً مربياً ، والذي يتفرغ لدراسة أرسطوطاليس في القسطنطينية ، لا يسلم من الجسور الذي كان ينبه السلطات دائماً الى ذلك المجرم ، فاذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيات ، فقد

استحق الموت بلا ريب ، وكانت تسود أهل الاسكندرية مثل تلك الروح التي دفعت احدى العالما ت حياتها ثمناً لفلسفتها .

واتزعت الاسكندرية قصب السبق من أثينا ، وقد ظلت مدرسة الاسكندرية الفلسفية قائمة حتى عشية الفتح الاسلامي . وانتشرت المدارس في جميع أنحاء الامبراطورية ، وظلت اللغة الاغريقية محتفظة بمكانتها في هذه المدارس ، وكان أعظم الأساتذة ينظرون بازدراء الى اللغة اللاتينية (اللسان الغربى) ، ولم تكن تدرس اللاتينية بحاسة الا حيث كان يدرس القانون الروماني .

وحتى في القرن الرابع الميلادي نفسه ، كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسها ، لأن تسامح الأباطرة مع الفلسفة اليونانية أخذ يقل بالتدريج . وفي سنة (٥٢٩ م) صادر جستيان الموارد التي كان يثقب منها على تعليم الفلسفة في أثينا ، وأرسل أساتذة الفلسفة الى فارس منفيين ، وقرر أن تستقى ثقافة الروم الشرقيين من أصول مسيحية . وقد أغلق فوقاس (٦٠٢ م - ٦١٠ م) جامعة القسطنطينية ، وحلت محلها مدرسة دينية أيام هرقل ، وكان التعليم في العاصمة دائماً تحت اشراف البطريرك .

وقد شهد القرن التاسع الميلادي نهضة في تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلقيان عوفاً صادقا من الأباطرة ، وقد أعاد القيصر باردا س انشاء الجامعة القديمة في القسطنطينية ، وعين لها أساتذة في الهندسة والنلك وفقه اللغة ، ولم تنقطع الدراسات القديمة بعد ذلك الى سقوط القسطنطينية سنة (١٤٥٤ م) ، غير أن الكنيسة كانت تنظر اليها بعين الريبة .

ولا نسمع عن التعليم القانوني الا قليلا ، فلم يكن في القسطنطينية خلال القرن الحادي عشر الميلادي من الدراسة القانونية شيء يفي بالحاجة ، وقد

أنشئت مدرسة جديدة للقانون في القسطنطينية سنة (١٠٤٥ م) ، ولكن لم تبق هذه المدرسة طويلا . وحينا أقبلت أيام الفوضى في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم الا قليلا جداً من المال . ولا شك في أن الامبراطورية التي لم تكن تستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تعد الجامعة نوعاً من الترف لا منفر من الاستغناء عنه (٢٤) .

ب - الأدب :

تغلبت رومة على الدول التي نشأت عن تهكك امبراطورية الاسكندر الكبير الآسيوية ، ولكنها لم تفلح في فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التي تحيط بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت الثقافة الهيلينية واسعة الانتشار ثابتة الأساس فيها . وعلى الرغم من محاولة ذقليديانوس وخلفائه تشجيع لغة الغرب (اللاتينية) ، فإن اللسان الاغريقي ظل يحفظ مكانته . وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية في مادة الشريعة والادارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكرية .

لقد كان أدب رومة الشرقية (القسطنطينية) أدباً يونانياً ، وكان أدباً تحصيلياً ، فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهيلينيين ، وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضي المجيد وأعماله ، فصاغ الأدباء البيزنطيون أدبهم على هذا النوال في قوالب قديمة ، فنشأت الهوية التي لا تزال موجودة ، بين اللغة المعكية واللغة المكتوبة في بلاد اليونان ، فكانت مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التي تصدر عن الطبع ،

(٢٤) الامبراطورية البيزنطية (١٦٦ - ٢١٦) .

لأن الحركة الأدبية البيزنطية اتسمت بالتقليد والتكلف ، وهكذا وقف المؤلفون المسيحيون في ذلك العصر بعينين عن عصرهم ، فهم يعيشون في مجتمعاتهم المسيحية ويؤلفون لها ، يتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها أشياء غريبة مجهولة ، فيخيل إلينا ونحن نقرأهم أننا نسمع هيرودس مرة أخرى يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين وطقوس عبادتهم العجيبة ، وتوارد على صفحات كتبهم أفكار الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين الفعالتين في عالم تزدحمه الخيلاء بأرثوذكسيته . وكان البيزنطي القح يعتبر الشكل لا المحتوى أهم شيء عنه ، وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيئ لنفسه مكاناً طيباً في محراب الأدب إلا إذا اجتهد مخلصاً في متابعة التقاليد القديمة . وهكذا حافظت رومة الشرقية على تراثها ، وأثقت جهودها في دراسته عن طريق التعليقات والشروح ، ولكن كان يموّزها التعمق في أسرار الطبيعة والوجود وروح البحث الحر الذي يبدو في مؤلفات المفكرين اليونانيين وكأنه نسيم الصباح العليل ، وتبدو أصالة الأدب البيزنطي في أكمل صورها في اللاهوت والشعر الديني والتاريخ . وقد نلت القصائد اللاذعة موجودة ، وإلى تعشق البيزنطيين لهذا اللون من الفن الأدبي يرجع الفضل في بقاء مجموعة من مختاراته اليونانية .

وكان الشعر الكلاسيكي خاضعاً لقواعد أساسها الكم ، وكان تركيب عباراته يقوم على أساس من طول المقاطع . أما في لغة الكلام ، فكان النبر (٢٥) هو ميزان الكلمات ، وكانوا يجعلون الضغط على المقطع المنبور ، وعلى هذا قصرت المقاطع غير المنبورة مهما يبلغ طولها الطبيعي . وتظلت المدائح الدينية المسيحية في شعر ميزانه عدد النبرات ، واستحدث القوافي لتكون رباعاً بين الأبيات . ولا كانت البلاغة تميل إلى إزالة الفوارق بين الشعر والنثر بما فيه

(٢٥) النبر في النطق : إبراز أحد مقاطع الكلمة عند النطق .

في الموسيقى الايقاعية ، فقد تأثر النثر الفني بالتطور الجديد . ولما كان أدب رومة الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فان غلبة الشعر الذي يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هي عليه ، ولم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم . وينبغي أن نضيف أن النبر ظل يؤثر في بناء الشعر بصورة متصلة ، وكان له أثر جديد في البحور الشعرية القديمة ، وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبي .

والمؤثرات الآسيوية بينة بوضوح في الأدب البيزنطي : في كثرة الأخيلة ، والبديع ، تلك الكثرة التي قد تبهم العبارة ولا توضحها ، فكان نتاج آباء القرن الرابع الميلادي شديد الزخرف قليل النظام ، ومع ذلك كان خصباً في إنسانيته . بيد أننا اذا حاولنا أن نجد هذه الانسانية في الكتابات اللاهوتية ، لم نفلتر بغير الحرة والأسى ، وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه الكتابات ، أما القارئ العادي فانه سيطلب متعة في غيرها . وقد استخدمت الفلسفة اليونانية للدفاع عن المسيحية ، ويمكن أن يقال ان عيد الأرثوذكسية (٨٤٣) يرسم نهاية مدة الابداع في اللاهوت وتبدأ مدة التقليد ، اذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الاستيعاب ، ولم يعد يسح بأن تسرب اليه فكرة الفلسفة اليونانية ، وهكذا اصبح الانسانيون في الدولة الشرقية كالهراطقة متهمين في نظر رجال الدين ، وكان علم اللاهوت في الدولة الشرقية منصرفاً تمام الانصراف الى المجادلة العقلية مع رومة .

أما في ميادين الشعر غير الديني ، فلم توفق بيزنطة ابدا الى شيء متميز من الطبقة الاولى ، فبات الشعر السداسي التفاعيل ، واستعمل من ثم الشعر ذو الاثني عشر مقطعا بانتظام ، غير أن الشعر البيزنطي غير الديني لم يستطع أن ينتج أعمالاً ذات نفس طويل . وقد عالج بعض الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر . أما الشعر الغنائي فقد مات ، واستبعدت مواضيع الحب المتبادل

بين المرأة والرجل ، وحل محلها شعر الملاحم الشعبية •

وقد نبغ الادب البيزنطي من مصدرين ، الاول : أصحاب المثل العليا من بين الرهبان والراحيات وأفكارهم عن العالم الآخر ، وهم الذين كانوا لا يهتمهم من شؤون هذه الدار العاجلة الا العثور على فرص يرفضونها ، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما في هذه الدنيا • والثاني : الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدولة والاباطرة ورجال الادارة ، وبذلك أصبح الادب البيزنطي اما أدب العاطفة المشبوبة والخيال المطلق ، واما آثما وغير لائق ، وكان الأدب المحافظ ينظر أن يمتزج بالجمال حتى في أغنية ريفية •

وفي النهاية ، ينبغي أن نذكر الأدب الشعبي البيزنطي ، وهو يتألف على الأغلب من الاساطير الاغريقية التي أصابها التكبير والتخوير ، كقصة حصان طروادة ، وسيرة أعمال الاسكندر العظيم ، وقد أصبحت نموذجاً للبطل المسيحي • وفيها كذلك حكايات شرقية منقولة من بعيد ، وقد غلب عليها ثوبها المسيحي • ولعل أمتع عناصر هذا الأدب هي سير القديسين التي كتبها الرهبان المتواضعون للجمهور البسيط ، ومن هذا الادب الشعبي يستفاد الشيء الكثير (٢٦) •

ج - الفن :

اضطرت الوثنية واليهودية أن يلجأ المستضعفون في الارض من المسيحيين الى سرايب الارض وكهوف الجبال خوفا من البطش ، وكانت النتيجة أن أصبح الفن المسيحي فنا رمزيا ، فتصاويره المرسومة على الجدران لم تحاول أبدا أن تمثل الحوادث التاريخية • ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التي تقوم على البشارة والرجاء ، وقد استعان في ذلك بالاشارات الصوفية

(٢٦) الامبراطورية البيزنطية (٢١٧ - ٢٢٢) •

التي ابتدعتها المدن اليونانية في الشرق الأدنى الذي ظهرت المسيحية في أكنافه . وهكذا تحولت الطائفة المنبوذة من المسيحيين في ذلك العالم المعاصر لها الى عالم الروح سعيًا وراء الثقة في النفس وحفز الهمة ، وأصبحت لشارات أهل الاسكندرية التي هي المرساة واليامة معان أخرى جديدة ، وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزا للراعي الصالح يحل الخراف الضالة ، بينما صورت صورة المصلين وهم يصلون بين أزهار التردوس كأنها رمز للرجاء الوطيد المضنون في خلود الروح .

وعندما انتصر المسيحيون المضطهدون في القرن الرابع الميلادي ، مظهر الفن لفترة ليتوج نصر المسيحية ، وظهرت الكنائس الى عالم الوجود بفضل عطف الملوك في كل مكان ، وبدأ لمنشئها أن الرمزية القديمة أكثر سطحية واضطرابا من أن تصلح لتجليل الكنائس . لقد انقضى شتاء المسيحية وأقبل ربيعها ، وكان لابد من رواء فخم يناسبه .

وأعادت رومة الجديدة سيادة الدولة الرومانية بعد اضطهاد مدينة رومة في القرن الثالث الميلادي ، فأضافت الألوان ومهارة الزخرفة التي تضفي على الفخامة الامبراطورية لباسا جديدا من الأبهة ، وأضاف الناس الى تصاوير الحيطان فن النسيج العائلي وتوسعوا فيه ، لانه كان أقدر على التأثير في النفس وأوسع مجالا وأدق خطوطا ، ولأن رسومه ترى واضحة عن بعد : فن يحتاج الى مجال واسع ، ولا بد له من عون المهندس المعماري حتى يرقى وينمو .

بيد ان العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الأغريقية ، وكانت النزعات الانسانية الاغريقية ، والنماذج العظيمة للجمال الانساني التي ابتدعها الخيال الهليني ، لا تزال ذات أثر عظيم الى جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية . فقد تجمعت في رومة الجديدة الى جانب المخلفات المقدسة للديانة

المسيحية روائع العالم الوثني ، وأصبحت القسطنطينية متحفا ومدرسة للفن لا تجارى . وكان للكنيسة اذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه . فقد أرادت أن تسجل بطولات القديسين ، وثبات الشهداء في وجه التعذيب والموت ، بل أرادت أن تصبح جدران هياكلها انجيلا مزينا بالرسوم للستنيرن الأمين ، وتاريخا مصورا لقصة الفداء .

ورفضت الكنيسة أن تتنع بالزينة وحدها ، ففي الفن الجديد المعقد ، الذي سارت به رومة الجديدة للأمام ، متسع في الحقيقة لكل شيء : كان فيه متسع للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم والأشجار المختلفة الاخرى ، ومشاهد الألعاب الوثنية ، والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعاب الاطفال المرأة على شواطئ الأنهار ، ولكل صور الخيال المبدع ، ومشاهد المواكب النخعة والقوة ، ومتسع للتلوين السابغ ، ولنفخامة النقش الفارسي المتداخل الخطوط المعقد التفاصيل ، ومتسع أيضا لهذه الناذج النبيلة التي أبدعتها الروح اليونانية الانسانية ، بينما أخذت الامبراطورية ما استطاع الشرق تقديسه في فن العسكرة ، ورفعت الى طبقة جديدة ، حتى بلغ أوجه في كنيسة القسطنطينية الكبرى . وكانت القسطنطينية في القرنين الرابع والخامس لليلاد واحدة من المراكز التي تؤثر في غيرها ، وكما أن القرن الخامس الميلادي شهد انتصار سياسة التركيز في المسائل الدينية ، فقد أخذ تأثير القسطنطينية يتزايد بالتدريج في دائرة الفن لسبين : ان المراكز الاخرى كانت تسعى وراء هبات امبراطورية لكنائسها وأبنيتها المدنية ، والسبب الثاني هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين في نشر تأثير العاصمة . وعلى الرغم من أن البنائين كانوا يتسمون الى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا الى تحقيق غاية واحدة ، ماداموا يخدمون سيذا واحدا . وفي زمن جستنيان لم تكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس رومة الجديدة ، كما

كان يتبع سابقا الأنودج الذي قرره بيت المقدس من قبل . وإذا قلنا ان القسطنطينية تبست القبة وأسلوب الزخرفة القائم على الرخام الكثير الألوان من الشرق ، فانا نلص الماهرة الاغريقية في الطريقة التي استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان في الامكان اقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسواء . وكان هذا الفن جريئا الى حد عظيم مكثه من أن يدخل في العمارة موضوعات جديدة ، كالآلام المسيح الذي تردد أهل العصور التي سبقت في تصويرها ، وتكونت في هذه المدة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء والأنبياء والرسل . بينما أحيا الفن الدنيوي الذي غف آثاره لواء الحظ ، اتعارات جستنيان الامبراطورية وقواده .

وبينما كان الطراز التاريخي الذي شاع في عصر جستنيان متجها الى الاضمحلال ، شجع الاباطرة فنا دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذي رجع الى حذر كبير الى الماضي يتوحيه ، فتحول الفنانون الى الريف والحياة الحيوانية ، والى المدن والملاعب ، والى الواقعية في تصوير الأشخاص .

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطي المدني ، ولكن كثيراً ما كان يميز الامبراطورية البيزنطية عن غيرها تمييزاً واضحاً - وهو فن الكنائس - لا يزال باقيا . وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفني في ميدان العمارة بما تميز به من ادراك مجيد للألوان في فيضاء الحوائط والتلبس بالرخام ، وبلي هذا ذلك الكمال الفني الذي يوفى على الغاية فيما ينبغي أن نسماه بالفنون (الصغرى) ، كالخفر على العاج ، ورسم المنسجات ، والتزيين بالمينا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج .

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطي ، بحجة أنه منحط وعديم الحياة ،

ولكن ظهر في السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته (٢٧) .
د - القانون الروماني :

القانون الروماني هو أكثر أعمال الروم أصالة ، وأعظم ما أهدوه لمن أتى بعدهم من الناس . وكان من شأن روح النظام الروماني وروح المحافظة الرومانية ، أن ارتثما بهذا الأثر المهم وحفظاه من الزوال على مر القرون . ونجد اسم جستنيان المشرع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطي كاسم معروف متداول .

وإذا أردنا أن نتبع تطور ذلك القانون زمن الأباطرة الروم الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسة :

- (١) دور التقنين الذي بدأ زمن دقلديانوس وبلغ ذروته في عمل جستنيان .
- (٢) دور تشريعات الأباطرة اللايقونيين .
- (٣) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين اللايقونيين .
- (٤) دور الرجوع الى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين .
- (٥) دور الاضمحلال .

وينبغي ألا يغيب عنا ، أن القانون في ذلك الحين ، كان تعبيراً عن ارادة الحاكم ، فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عندما حل القرن الثالث الميلادي ، كان عصر البناء والانشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان قد أشرف على النهاية . وفي زمن دقلديانوس بدأ عصر التقنين في تاريخ القانون الروماني ، وقد جمعت حوالي هذا الوقت القوانين الأساسية التي أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقلديانوس . وتمت بعبء هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التي أصدرها دقلديانوس . ويظهر أن

(٢٧) الامبراطورية البيزنطية (٢٣١ - ٢٥٢) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

ثيودوسيوس الثاني من سنة (٤٢٩م) قد خطرت له فكرة عمل قانون عام ، ولكنه انصرف عن مشروعه ، ولكن مجموعة من القوانين الأساسية الامبراطورية صُنِّت على أيدي لجنة عينت سنة (٤٣٥م) ، ونشرت هذه المجموعة سنة (٤٣٨م) ، وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً في الغرب والشرق في سنة (٤٣٩م) .

غير أن تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيار التشريع الامبراطوري ، واستمر الاباطرة يصدرن القوانين . ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسرب الى كيان القانون الروماني . وقد شكّا جستييان من ذلك ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل الى ما لا نهاية له ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية .

وكان جستييان يعتقد أن الامبراطور يحل عبء واجب مزدوج ، فقد كان عليه أن يكون القائد الفاتح والمشرع الأعلى في الوقت ذاته ، فإذا كانت القسطنطينية قد اتسمت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدل قوانينها ، فواجبه كوارث لماضي رومة أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج ، ولم يكن له منفر والحالة هذه ، من عمل حصر كامل للقانون الروماني .

وقد وجد الامبراطور في وزير القضاء (اكوستر القصر) تريونيان رجلاً المنشود ، فعهده اليه في رئاسة لجنة مهمتها جمع القوانين التي أصدرها اباطرة الرومان وتنسيقها وحذف المتشابه منها واستخلاص مجموعة قانونية واحدة منها . وقد وفقت اللجنة في عملها ، فصدرت في شهر نيسان (أبريل) من سنة (٥٢٩م) مجموعة جستييان القانونية التي وضعت على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجيان وثيودوسيوس ، وضمت كذلك قوانين الاباطرة المتأخرين التي كانت مازال نافذة ، وقد نفذ العمل في أقصى سرعة ، ولم يكن المندوبون العشرة في حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لانجازه .

ولكن أصالة جستينان الحقيقية ظهرت في انشاء الموجز (الدايجست) ، فندب لذلك ستة عشر مندوباً جديداً ، وكلفهم في سنة (٥٢٩٠ م) بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرعين العظام ، يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها ، وقدر لانعام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه تم في مدى ثلاث سنين ، فقد نشر ذلك الموجز على الملا في كانون الأول (ديسمبر) سنة (٥٢٩٣ م) ، وهكذا أقيم في (١٥٠٠٠٠٠) سطر - على حد قول الامبراطور - « معبد للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصول التي استخلص منها ، ومن الطبيعي أن تتوقع ان يكون هناك نقص كبير في تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذي استلزمه تصنيفه ، وقد قيل الكثير في نواقصه ، ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت في البلاد الرومانية ، حتى كان القضاة يكتفون بالاستفادة من مؤلفات قدماء المشرعين بعد عناوينها عدداً حسانياً ، وأصبح مجرد ذكر عدد المؤلفات التي استعان بها المحامي كافياً لكسبه القضية .

وتبدو عظمة جستينان في الواقع كمشروع في ادراكه أن قانون أية أمة هو تطور عضوي يوجز تاريخ تلك الأمة ، وعلى الرغم من رغبته في تبسيط الاجراءات الثانوية الرومانية ، وفي اضعاف انسانية أكبر على عدالة الروم ، فإنه لم ينشئ كتاباً موجزاً علياً فحسب ، بل تعدى ذلك الى ما هو أعظم منه ، وخلق عملاً لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله : ان قانونه « كالقلعة تحصى خلف جدرانها كنوز الماضي من عاديات الزمن الحود ، وهو يكشف لأهم الغرب البربرية في الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » . وقد أصدر جستينان في تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٥٢٩٣ م) مقدمة للقانون الروماني - سميت التلثم - صيغت على نط كتيب سابق للشرع

الواء الركن محمود شيت خطاب

جايوس ، ولكنها تضم التغييرات التي طرأت على القانون نتيجة لتشريعات امبراطورية نالية . وهكذا أحل القانون الجديد في سنة (٥٣٤ م) محل قانون سنة (٥٣٠ م) ، ولم يبق اليوم بين أيدينا الا هذه النسخة الاخيرة . وما يزال لدينا ما يقرب من مئة قانون من قوانين جستيان الأساسية ، ونشاطه القانوني واضح في كل مجال ، وقد قرر الامبراطور أنه اتخذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها في تحقيق اصلاحاته وهي : (الانسانية) و (المنطق الطبيعي) و (المنفعة العامة) .

وبالرغم من أن أباطرة القرن السابع الميلادي كانوا يصدرن قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسة بالادارة العامة ، أو بمعلقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة النطاق في القانون الخاص الا في عصر الأباطرة اللايقونيين . واذيتم (الاكلوجا Ecloga) في سنة (٧٣٩ م) ، وهي مختارات من القانون أخذت من تشريع جستيان بعد اجراء تعديلات « في اتجاه أكثر انسانية » ، ولكن باسيل المقدوني ألغى أو قلب أكثر هذه التطورات رأساً على عقب ، فقد رجع مرة أخرى الى قانون القرن السادس للميلاد .

وفي وقت ما بين (٨٧٠ م) و (٨٧٩ م) ، أذيع كتيب جديد يسمى (بروخيرون Procheiron) ليحل محل (الاكلوجا) ، بينما عينت لجنة لتعد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجزاء الشاذة التي أدخلها محطمو الصور (اللايقونيون) البراطقة . وقد جمع بين سنة (٨٧٩ م) و (٨٨٦ م) كتيب آخر منقح ، ولكنه على ما يرجح لم يقدر له أن ترقه الدولة . وانا لنشك فيما اذا كانت مجموعة باسيل التي تقع في أربعين جزءاً قد قدر لها أن تنشر ، ومن المؤكد أننا لا نملك الا القانون المسى (البازيليكا) (الاوامر الامبراطورية) والذي يقع في مئين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس الذي خلف

باسيل المقدوني ، وحتى هذا القانون لم يصل إلينا كاملاً . وكانت مؤلفات جتنيان لاتزال تدرس حتى بعد أن صدرت البازليكا ، وخصوصاً في القرن الحادي عشر للميلاد ، عندما أسس قسطنطين منوماخوس في سنة (١٠٤٥م) مدرسة للقانون في القسطنطينية ، ولكن كان نشاط هذه المدرسة قصير الأمد . وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد ، أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازليكا وحدها التي كانت تمثل القانون المعمول به تلقى تأييداً . وحينما أخذ علم القانون يشعل ، توقفت تطور القانون الروماني الخاص ، وكان ذلك بعد حكم ليو السادس . ثم جاء بعد ذلك دور الكتيبات والمختصرات ، وأهملت البازليكا ، وبلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور (الهيخابيلوس Hexabiblos) أي (الكتب الستة) التي ألقت سنة (١٣٤٥م) ، وقد وصفها بعضهم بقوله : أنها موجز لموجزات الموجزات ، وأصبح القانون الروماني في أيامه الأخيرة : « خلط قريب من الكفر » .

وكانت المؤثرات الرئيسية التي أثرت في تطور القانون الروماني في عصوره المتأخرة التي سبقت دور الاضمحلال :

(١) أثر العائلة المسيحية العامة .

(٢) تأثير الكنيسة كهيئة كانت تعبر عن إرادتها في صورة قوانين تصدرها المجالس والمجامع الدينية .

(٣) العادات الجارية وخصوصاً في الولايات الشرقية .

ومن الطبيعي أن يستزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة ، وقد يكون من الصعب في أية حالة خاصة أن نعين لأي منها كان التأثير الغالب في هذه الناحية أو تلك .

وعن طريق الدراسة الوثيقة لأوراق البردي ، نستطيع أن تبين أن وحدة القانون الروماني وطاقمه العالمي وسريان العمل به في أنحاء الامبراطورية كلها ،

الواء الركن محمود شيت خطاب

انما كانت مثلاً علياً للأباطرة لم يُقدَّر لها في حالة التطبيق أن تحقق تحقيقاً كاملاً .

وكل ما نستطيع أن نتيه الآن ، هو أن قوى الماديات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية ، التي أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هي غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قسطنطين (٢٨) .

هـ - الحضارة :

ما هو الطابع الأساس لهذه الحضارة البيزنطية ؟ طالما قيل : ان دولة رومة الشرقية « كانت امبراطورية شرقية على وجه التحديد » . والواقع أن رومة الشرقية تشربت عناصر شرقية كثيرة في الفن والقانون الجنائي وحتى في فلترتها الى الحكم . الا أن طابع الحضارة الاساس للقسطنطينية لم يقتصر على الشرق وحده ، بل يشمل امتزاج عنصرين موروثين : العنصر اليوناني الذي اتست به مدن شرق البحر الأبيض المتوسط الاغريقية ، والعنصر الروماني الذي تلقته رومة الجديدة من الامبراطورية الرومانية الأولى ، وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاماً الى حد لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر .

على أننا يمكننا أن نقول بوجه عام : ان رومة الشرقية كانت يونانية في اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، وان احساسها بذلك كان تاماً واعياً . أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية وديبلوماسيتها وسياستها المالية وتسكها الدائم بيادة الدولة ، فقد كانت رومانية .

ومع ذلك يبقى تأثير الشرق في الامبراطورية البيزنطية واضحاً للعيان ،

لا ينكره البيزنطيون أنفسهم ، ولا ينكره منصف من غيرهم ، ولكن ليس الشرق هو المؤثر الأول والأخير كما يزعم قسم من الباحثين ، لأن تأثير الغرب فيها واضح للعيان أيضاً ، فالحضارة البيزنطية شرقية غربية ، مزيج بين الشرق والغرب : جديد الشرق ، وتليد الغرب (٢٩) .

ومن حق القارىء أن يعرف ، أن قسماً الزراعة والتجارة من بحث : الموارد الاقتصادية ، وبحث : تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه ، مقتبسة من كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٣٠) ، الذي ألفه نورمان بينز وعربه الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد ، وقد ذكرت هذا المصدر في هوامش هذه الدراسة ، الا أن الأمانة العلمية وواجب الشكر العميق للؤلف والمحررين الأفاضل حلني على تفصيل هذا الشكر والاقتباس في هذا المكان .

وبعد هذا العرض التاريخي للموارد الاقتصادية البيزنطية ، وللتاريخ البيزنطي منذ قيام القسطنطينية الى سقوطها ، يتضح بجلاء وبشكل لا شك فيه ، أن الدولة البيزنطية كانت إحدى الدولتين العظيمتين في العالم : الدولة البيزنطية ، والدولة الساسانية ، وأنها كانت أقوى الدولتين في أيام الفتح الاسلامي ، لأن هرقل امبراطور الروم اتصر على الساسانيين انتصارات حاسمة واسترد البلاد التي كان الساسانيون قد اغتصبوها من الروم ، كما أن حضارة الروم كانت أرقى حضارة عالمية في وقتها ، وكان جيشها عريقاً في تنظيمه وتدريبه وتسلحه وقيادته ، كما كان يتحلى بالمعنويات العالية ، لاتنصاه على الساسانيين ، وما كان العرب قبل الاسلام في ميزان القوى والحضارة ينافسون الروم ولا يحلمون بمنافستهم ، وما كان الروم ضعفاء قبل الفتح

(٢٩) الامبراطورية البيزنطية (٣١٤ - ٣١٥) .

Norman H. Baynes, The Byzantine Empire, London 1946.

(٣٠)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

الاسلامي وفي أيامه المجيدة .
أما بعد الاسلام ، فقد انتصرت الفئة القليلة من العرب المسلمين على
الامبراطورية البيزنطية في : بلاد الشام والجزيرة ومصر وشمالى افريقية ،
وهددوا الروم في عقر دارهم !!
كيف حدثت المعجزة !! ذلك ما نعالجه في فتح بلاد الروم وشيكا .

اباطرة الروم

من قسطنطين الاول الى قسطنطين الحادي عشر (٣١)

١ - أسرة قسطنطين

- قسطنطين الاول الكبير توفي سنة ٣٣٧ .
- قسطنطيوس ٣٣٧ - ٣٦١ حكم منفردا بعد سنة ٣٥١ .
- يوليان المرتد ٣٦١ - ٣٦٣ حكم منفردا .
- يوفيان Jovian ٣٦٣ - ٣٦٤ حكم منفردا .
- فالنس ٣٦٤ - ٣٧٨ .

٢ - أسرة ثيودوسيوس

- ثيودوسيوس الاول ، الكبير ٣٧٩ - ٣٩٥ حكم منفردا بعد سنة ٣٩٢ .
- أركاديوس ٣٩٥ - ٤٠٨ .
- ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ - ٤٥٠ ، كان اثيموس وصيا من سنة ٤٠٨ - ٤١٤ .
- مارقيان Marcian ٤٥٠ - ٤٥٧ .

(٣١) نقلا من كتاب : الحضارة البيزنطية - ستيفن رونسمان - لندن - ١٩٤٨ ،

انظر الامبراطورية البيزنطية (٢٩٩ - ٤٠٩) .

Steven Runciman : Byzantine Civilization, pp. 3.1 (London 1948).

٣ - أسرة ليو

- ليو الاول ٤٥٧ - ٤٧٤
- ليو الثاني ٤٧٤
- زنون ٤٧٤ - ٤٩١ ، باسيليكوس المتصب ٤٧٥ - ٤٧٦
- أناستاسيوس الاول ٤٩١ - ٥١٨

٤ - أسرة جستيان

- جستن الاول ٥١٨ - ٥٢٧
- جستيان الاول ٥٢٧ - ٥٦٥
- جستن الثاني ٥٦٥ - ٥٧٨ ، صوفيا وصية من ٥٧٣ الى ٥٧٤ ، ولياريوس وصيا من ٥٧٤ الى ٥٧٨
- ولياريوس الثاني ٥٧٨ - ٥٨٢
- موريس ٥٨٢ - ٦٠٢ ، ثيودوس شريك في العرش ٥٠٩ - ٦٠٢
- فوكاس Phocas ٦٠٢ - ٦١٠

٥ - أسرة هرقل

- هرقل الاول ٦١٠ - ٦٤١ ، قسطنطين الثالث ٦١٣ - ٦٤١ ، وهرقليوناس ٦٣٨ - ٦٤١
- قسطنطين الثالث ٦٤١ مارتينة Martina وصية ٦٤١
- قسطنطين الثاني ٦٤١ - ٦٦٨ وهرقل ولياريوس ٦٥٩ - ٦٨١
- قسطنطين الرابع ٦٦٨ - ٦٨٥
- جستيان الثاني ٦٨٥ - ٦٩٥
- ليوتيوس ٦٩٥ - ٦٩٨

• طلياروس الثالث ٦٩٨ — ٧٠٥ •

• جستيان الثاني ٧٠٥ — ٧١١ ، للمرة الثانية طلياروس ٧٠٦ — ٧١١ •

• فلييكوس ٧١١ — ٧١٣ ، وباردانس Bardanes معه •

• انتاسيوس الثاني ٧١٣ — ٧١٥ ، وأرتيموس Artemius

• ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ — ٧١٧ •

٦ — الأسرة الأيسورية

• ليو الثالث الأيسوري ٧١٧ — ٧٤٠ ، وقسطنطين الخامس ٧٢٠ — ٧٤٠ •

• قسطنطين الخامس ٧٤٠ — ٧٧٥ ، وليو الرابع ٧٥٠ — ٧٧٥ •

• ليو الرابع ٧٧٥ — ٧٨٠ ، وقسطنطين السادس ٧٧٦ — ٧٨٠ •

• قسطنطين السادس ٧٨٠ — ٧٩٧ ايريني وصية ٧٨٠ — ٧٩٠ ، ٧٩٢ — ٧٩٧ •

• ايريني ٧٩٧ — ٨٠٢ •

• تقفور الاول ٨٠٢ — ٨١١ •

• ستوراكيوس ٨١١ •

• ميخائيل الاول ٨١١ — ٨١٣ •

• ليو الخامس ، الأرمني ٨١٣ — ٨٢٠ •

٧ — الأسرة الممورية (الفريجية)

• ميخائيل الثاني ، المموري ٨٢٠ — ٨٢٩ ، وثيوفيلوس ٨٢٩ — ٨٢٩ •

• ثيوفيلوس ٨٢٩ — ٨٤٢ •

• ميخائيل الثالث ، الكبير ٨٤٢ — ٨٦٧ ، وثيودورا وصية ٨٤٢ — ٨٥٦ ،

• وباراس وصيا ٨٦٢ — ٨٦٦ ، وباسيل الاول ٨٦٦ — ٨٦٧ •

٨ — الأسرة المقدونية

• باسيل الاول المقدوني ٨٦٧ — ٨٨٦ ، وقسطنطين ٨٦٩ — ٨٨٠ ، وليو السادس

- ٨٧٠ - ٨٨٦ ، والاسكندر ٨٧١ - ٩١٢ .
- ٩١٣ - ٩١٢ ، وقسطنطين السابع ٩١١ - ٩١٣ .
- ٩١٣ - ٩١٢ الاسكندر
- ٩١٣ - ٩١٢ ، وقسطنطين السابع ، الأرجواني ٩١٣ - ٩١٩ ، ومجلس وصاية ٩١٣
- وصية ٩١٣ - ٩١٩ .
- ٩١٩ - ٩٤٤ ، وقسطنطين السابع ٩١٩ - ٩٤٤
- ٩٢١ - ٩٣١ وكرستوفر ٩٢١ - ٩٣١ وستيفن ليكابينوس ٩٢٤ - ٩٤٥
- ٩٢٤ - ٩٤٥ وقسطنطين ليكابينوس
- ٩٤٤ - ٩٥٩ ، ورومانوس الثاني حوالي ٩٥٠ - ٩٥٩
- بورفيروجيتوس
- ٩٥٩ - ٩٦٣ ، وباسيل الثاني ٩٦٠ - ٩٦٣
- ٩٦١ - ١٠٢٥ وقسطنطين الثامن
- ٩٦٣ - ٩٦٣ ، ثيوفانو وصية ٩٦٣
- ٩٦٣ - ٩٦٩ ، فوكاس ٩٦٣ - ٩٦٩ ، وباسيل الثاني ٩٦٣ - ٩٧٦
- ٩٦٩ - ٩٧٦
- ٩٧٦ - ١٠٢٥ ، سفاح البلغار ٩٧٦ - ١٠٢٥
- ١٠٢٥ - ١٠٢٨ قسطنطين الثامن
- ١٠٢٨ - ١٠٣٤ ، أرجيروس ١٠٢٨ - ١٠٣٤
- ١٠٣٤ - ١٠٤١ ميخائيل الرابع
- ١٠٤١ - ١٠٤٢ ، الشماع ١٠٤١ - ١٠٤٢
- ١٠٤٢ - ١٠٤٢ ، الأرجواني ١٠٤٢ - ١٠٤٢
- ١٠٤٢ - ١٠٥٥ قسطنطين التاسع
- ١٠٥٥ - ١٠٥٦ ، الأرجواني ١٠٥٥ - ١٠٥٦

• ميخائيل السادس ١٠٥٦ - ١٠٥٧

• اسحق الاول ، كومنينوس ١٠٥٧ - ١٠٥٩

٩ - أسرة دوكلس

• قسطنطين العاشر ، دوكلس ١٠٥٩ - ١٠٦٧ ، وميخائيل السابع حوالي ١٠٦٠

• ١٠٦٧ -

• ميخائيل السابع ١٠٦٧ - ١٠٦٨ ، وايدونيا وصية ١٠٦٧ - ١٠٦٨

• رومانوس الرابع ، ديوجينيس ١٠٦٨ - ١٠٧١ ، وميخائيل السابع ١٠٦٨ -

• ١٠٧١

• ميخائيل السابع ١٠٧١ - ١٠٧٨

• تقفور الثالث ١٠٧٨ - ١٠٨١

١٠ - أسرة كومنين

• الكيوس الاول ، كومنينوس ١٠٨١ - ١١١٨ ، وقسطنطين دوكلس ١٠٨١

• حوالي ١٠٩٠ ويوحنا الثاني ١٠٩٢ - ١١١٨

• يوحنا الثاني ، كالوجوهانيز ١١١٨ - ١١٤٣ ، والكيوس ١١١٩ - ١١٤٣

• مانويل الاول ١١٤٣ - ١١٨٠ ، والكيوس الثاني ١١٧٢ - ١١٨٠

• الكيوس الثاني ١١٨٠ - ١١٨٣ ومارثة الاطكاكية وصية ١١٨٠ - ١١٨٢

• وأندرونيكوس الاول ١١٨٢ - ١١٨٣

• أندرونيكوس الاول ١١٨٣ - ١١٨٥

١١ - أسرة أنجيل

• اسحاق الثاني ، أنجيلوس ١١٨٥ - ١١٩٥

• الكيوس الثالث ١١٩٥ - ١٢٠٣

- الكيوس الرابع ١٢٠٣ - ١٢٠٤ واسحق الثاني ١٢٠٣ - ١٢٠٤
- الكيوس الخامس ١٢٠٤

١٢ - أسرة الأشاكرة

(امبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ - ١٢٦١)

- ثيودور الاول الأشكري ١٢٠٤ - ١٢٢٢
- يوحنا الثالث ، دوكاس فاتاتريس ١٢٢٢ - ١٢٥٤
- ثيودور الثاني الأشكري ١٢٥٤ - ١٢٥٨
- يوحنا الرابع ، دوكاس فاتاتريس ١٢٥٨

١٣ - أسرة باليولوجوس

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ - ١٢٨٢ ، وأندرونيكوس الثاني

• ١٢٧٢ - ١٢٨٢

أندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ - ١٣٢٨ ، وميخائيل ١٢٩٥ - ١٣٢٠

• وأندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ - ١٣٢٨

• أندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ - ١٣٤١

• يوحنا الخامس ١٣٤١ - ١٣٤٧ ، وحنة أميرة سافوي وصية ١٣٤١ - ١٣٤٧

• يوحنا السادس ، كاتاكوزني ١٣٤٧ - ١٣٥٥ ، ويوحنا الخامس ١٣٤٧ -

• ١٣٥٥ وماتيو كاتاكوزني ١٣٤٨ - ١٣٥٥

• يوحنا الخامس ١٣٥٥ - ١٣٧٦

• أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦ - ١٣٧٩ ويوحنا السابع ١٣٧٦ - ١٣٩٠

• يوحنا الخامس ١٣٧٩ - ١٣٩٠ ، وأندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ - ١٣٨٥

• ومانويل الثاني ١٣٧٦ - ١٣٩١

• يوحنا السابع ١٣٩٠

• يوحنا الخامس ١٣٩٠ - ١٣٩١

• مانويل الثاني ١٣٩١ - ١٤٢٥ ، ويوحنا السابع ١٣٩٩ - ١٤١٢

• يوحنا الثامن ١٤٢٣ - ١٤٢٥

• يوحنا الثامن ١٤٢٥ - ١٤٤٨

• قسطنطين الحادي عشر ١٤٤٨ - ١٤٥٣

• دراجاسيس

ملاحظة :

كان بعض الإباطرة الدولة البيزنطية يشتركون في الحكم كشركاء للإمبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان .
وقد وضعنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة ازاء الإباطرة الذين شاركوهم في الحكم ، ثم عدنا فكتبنا أسماءهم في قائمة الإباطرة الرئيسة عندما تولوا الحكم .
أرجو ملاحظة ذلك عند دراسة هذه القائمة .

فتح بلاد الروم

١ - الموقف العام :

أ - كان العرب قبل الاسلام ، على صلة وثيقة بالروم حكومة وشعبا ، فقد كان سكان الجزيرة عربا ، وكانوا أغلب سكان هذا الاقليم الذي يقع بين النهرين : دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة تحت حكم الروم ، كما ذكرنا ذلك في بحث : بلاد الجزيرة .

وكانت دولة الفاسنة العربية قبل الاسلام في جزء من بلاد الشام ، وقد قامت هذه الدولة للروم مقام دولة المناذرة في العراق للفرس ، فكانت دولة حاجزة اتخذ الروم منها مجنا (٣٢) يقيمهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضد الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى (٣٣) ، فكان عرب الجزيرة والفاسنة على صلة قوية وتعاون مستمر بالروم وبالعرب الجزيرة العربية وبخاصة تجار قريش .

وقد ذكرنا في الحديث عن طرق التجارة البيزنطية التي تصل الشرق الاقصى ببلاد الروم وبالعكس ، أن أحد تلك الطرق الثلاثة المهمة ، وهو طريق الهند والصين البحري عبر البحر الاحمر ، يمر بسكة باعتبارها مركزا مهما للتجارة قبل الاسلام ، ويتصل بتجارته أهل مكة العاملون بالتجارة ، مما يؤدي الى التعارف والاتصال .

(٣٢) المجن : الترمس .

(٣٣) كتاب : عصر ما قبل الاسلام - محمد مبروك نافع (١١١) - القاهرة - ١٩٥٢ - ط ٢ .

وفي سورة قريش المكية : (لا يلاف قريش • ايلافهم رحلة الشتاء والصيف) (٢٤) ، وكانت رحلة تجار قريش الى اليمن شتاء لانها دافئة ، ورحلتهم الى الشام صيفا لانها باردة ، فيمتارون ويتجرون (٢٥) ، وكانت بلاد الشام يومئذ من أملاك الروم ، مما أدى الى اتصال العرب بالروم مباشرة في هذه الرحلة وفي المعاملات التجارية ، فكان لقسم من تجار قريش من أهل مكة وتجار الأوس والخزرج من أهل المدينة معرفة شخصية بحكام الروم ومنهم الإمبراطور وبشعب الروم من التجار ورجال الدين المسيحي ، كما سيرد ذكره قريبا .

وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث مرتين الى بلاد الشام مرة مع عمه أبي طالب في تجارته (٢٦) ، ومرة مع ميرة غلام خديجة بنت خويلد بعد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة (٢٧) ، فعرف بلاد الشام وعرف الروم .

وقصة الشاعر الجاهلي امرئ القيس الذي قصد قيصر الروم يستمه معروفة ، فلما صار امرؤ القيس الى ملك الروم أكرمه وناداه ، واستمه فوعده ذلك ، وقد وصف أمير الشعراء الجاهلين سفره الى بلاد الروم ولقاءه بملك الروم في شعره الرائع ، ولاتزال كتب الأدب تحفل بهذا الشعر المتين (٢٨) ، وهذا يدل على علق الصلة بين العرب في جاهليتهم وبين الروم .

(٢٤) الأيتان الكريمتان من سورة قريش (١٠٦ : ١ - ٢) .

(٢٥) انظر تفسيرها في : الكشاف (٢٨٩/٢ - ٢٩٠) وابن كثير (٣٠٤/١ - ٣٠٧) والبغوي (٣٠٤/١ - ٣٠٧) والجامع لأحكام القرآن (٢٠/٢٠٠ - ٢٠٩) وفي

ظلال القرآن (٢٦٠/٣ - ٢٦١) .

(٢٦) سيرة ابن هشام (١٩٤/١) .

(٢٧) سيرة ابن هشام (٢٠٣/١) .

(٢٨) الشعر والشعراء - ابن قتيبة (١/٦٠ - ٦٢) - لبنان - ١٩٦٤ .

ب - وجاء الاسلام ، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليه سرا ، ثم أصبحت الدعوة الى الاسلام علنية ، فاشتد عضد الاسلام والمسلمين باقبال الناس على اعتناقه ، حتى أصبح خطرا يتهدد مصير المشركين من قرش في مكة ، وكان مولد الاسلام في ١٧ رمضان الموافق ٦ آب (اغسطس) من سنة (٦١٠ م) (٢٩) .

وكانت الحرب مستعرة بين الروم والفرس ، بدأت سنة (٦١٠ م) وانتهت سنة (٦٢٨ م) ، وفي تلك الحرب انتصر الفرس على الروم في صفحتها الاولى ، فاحتلوا ارمينية والجزيرة وبلاد الشام والقدس واستولوا على العود المقدس للصليب ، واحتلوا مصر والعراق وهاجموا القسطنطينية واحتلوا مناطق شاسعة من آسيا الصغرى ، واستمرت انتصارات الفرس على الروم حتى سنة (٦٢٢ م) ، حيث أعاد الروم الكرة على الفرس ، فاستعاد الروم ارمينية ، وانتصروا على الفرس في معركة (نينوى) الحاسمة سنة (٦٢٧ م) ، وفي سنة (٦٢٨ م) كتب ملك الفرس الى هرقل ملك الروم يطلب الصلح ، فصالحه هرقل على شروط أهمها : العودة الى الحدود القديمة ، والطلاق الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس ، فقبل شيوخه ملك الفرس هذه الشروط (٣٠) . واحتدم الجدل بين المسلمين الأولين السابقين الى الاسلام بمكة قبل الهجرة وبين المشركين ، ولما كان الروم أهل كتاب دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحدين دياتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفالا بانتصار ملة الكفر على ملة الايمان . ومن ثم نزلت الآيات الاولى من سورة الروم : (ألم • غلِبت الروم • في

(٢٩) سيرة خاتم النبيين (٤٢) - ابو الحسن علي الحسني الندوي - بيروت - ١٣٩٨ هـ - ط ٢ .

(٤٠) الروم - اسد رستم (١/٢٢٢ - ٢٢٧) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبتهم سيفليون . في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم (٤١) تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودون انتصار ملة الايمان من كل دين (٤٢) . لقد كان المسلمون منحاكين بمواقفهم الى الروم ، أما كسار العرب فكانوا يسيلون الى الفرس ، وشيئ الشيء منجذب اليه ، ولا أدل على ذلك من أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه راعى ابن خلف وهو من وجوه كفار قريش على مائة بعير أن الروم سينتصرون (٤٣) . ان احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين حول الروم ، دليل على تطلع الجانبين على اخبارهم وتبعية الأخبار واقتناصها ، ولا يكون ذلك الا لأهمية الروم في نفوس العرب بالرغم من تناقض عقيدتهم .

ج - وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وهاجر معه من هاجر من المسلمين ، فازداد تماس المسلمين بالروم في السلام والحرب . فقد أقبل دحية بن خليفة الكلبي (٤٤) من عند قيصر الروم وقد أجازاه وكساه ، وكان من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي طريق عودته الى المدينة المنورة لقيه الهندي بن عارض وابنه عارض بن الهندي في

(٤١) الآيات الكريمة من سورة الروم (٢٠ : ١ - ٥) .

(٤٢) انظر تفسير الآيات الكريمة في : ظلال القرآن (٢١/٢٠ - ٢٢) وصفوة التفاسير (٦/١٢) .

(٤٣) الروم (٢٢٤/١) ، وامي بن خلف بن وهب بن جهم القرشي الجمحي ، قتل مشركا يوم أحد ، انظر جهمرة انساب العرب (١٥٦) .

(٤٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

ناس من بني جذام ب (حِمْصَى) ^(٤٥) ، فقطعوا عليه الطريق ، ولم يتركوا عليه الا سَمَك ثوب ، فسمع بذلك ثمر من بني الضَّيِّب ، فنزفوا اليهم ، واستنقذوا لدحية متاعه .

وقدم دحية على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بذلك ، فبعث زيد ابن حارثة الكلبي ^(٤٦) في خمسمائة رجل ، ورد معه دحية ، فأدبت سرية زيد بني جذام وقتلت الهنيد وابنه ^(٤٧) ، وهذا يدل أن قسا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم علاقة بلك الروم ، كما أن بادية الشام التي تقع فيها (حِمْصَى) كانت تحت نفوذ الفساسنة خلفاء الروم ، ومهاجرة من فيها مهاجرة مباشرة للروم لأن جذام حلفاؤهم .

وكانت سرية حمص في جمادى الآخرة من السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى (مُوتَة) ^(٤٨) في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية (٦٢٩م) زيد بن حارثة الكلبي في سرية مؤلفة من ثلاثة آلاف مجاهد . وكان سبب بعث هذه السرية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عير الأزدي أحد بني لبب الى ملك (بُصْرَى) ^(٤٩) بكتاب ،

(٤٥) حمص : ارض ببادية الشام ، بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٣) .

(٤٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤٧) طبقات ابن سعد (٨٨/٢) ومغازي الواقدي (٥٥٥/٢ - ٥٦٠) .

(٤٨) مُوتَة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٠/٨) وهي بادنى البلقاء دون دمشق ، انظر طبقات ابن سعد (١٢٨/٢) ، والبلقاء : هي الاردن الحالية .

(٤٩) بصرى : مدينة من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٨/٢) .

اللقاء الركن محمود شيت خطاب

فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله ، ولم يقتل لرسول الله صلى عليه وسلم رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه ، وتذب الناس ، فأمرعوا وعسكروا بالجرف ^(٥٠) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ، فإن قتل فعبدة بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المملون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .

واستشهد القادة الثلاثة بالتعاقب ، واصططح الناس على خالد بن الوليد ، فسحب قوات المسلمين من ميدان المعركة ، لاتخاذهم من معركة خاسرة تجاه تفوق العدو العددي والعُددي ^(٥١) .

وهكذا التقى المسلمون لأول مرة بقوات الغسانة المتفوقة ، والغسانة حلفاء الروم الأقربون ، ولقاؤهم كلقاء الروم لا فرق بينهما في شيء . ولم ينتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً مادياً ، بل انتصروا انتصاراً معنوياً ، فأصبح لديهم خبرة بسكان المنطقة وأساليبهم القتالية وطبيعة أرضهم ، وهذا ما انتفع به المسلمون في معارك الفتح .

وفي رجب من السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠ م) كانت غزوة تبوك ^(٥٢) ، فقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هيرقل امبراطور الروم قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغان ، وقدموا مقدماتهم الى اللقاء ، فسار عليه

(٥٠) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٦/٢) .

(٥١) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢ - ١٢٠) ومغازي الواقدي (٧٥٥/٢ - ٧٦٩) .

(٥٢) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام ، وهو حصن به عين ونخل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧٦٥/٢) .

بلاد الروم

الصلاة والسلام على رأس ثلاثين ألف مجاهد الى تبوك منهم عشرة آلاف فارس ، وكان الروم قد أكملوا تحشد قواتهم المؤلفة من جنودهم النظاميين ومن القبائل العربية الموالية للروم في تبوك قبل وصول المسلمين اليها ، ولكن المعلومات التي وصلت اليهم عن ضخامة جيش المسلمين ومعنوياتهم العالية اضطرت الروم الى الانسحاب من تبوك شمالا . ويبدو أن الروم لم يقدروا خطورة هذه الغزوة وأهميتها ، وحسبوا غارة من غارت البدو التي تنتشع بسرعة دون أن تترك أثراً باقياً وتأثيراً كبيراً ، لذلك انسحبوا تلافياً لخسائر لا مسوغ لها . أما المسلمون ، فكان انتصارهم مادياً اذ صالحوا صاحب (أيلة) (٥٣) ومناطق أخرى من بلاد الشام ، وكان انتصارهم معنوياً ، اذ ارتفعت معنوياتهم ، فكانت هذه الغزوة فاتحة لفتح بلاد الروم (٥٤) .

د - وفي هذه الغزوة ، وهي غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، تخلف ثلاثة من الصحابة دون عذر مشروع ، ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الذين كانوا معه من تبوك الى المدينة المنورة ، اعترف هؤلاء المتخلفون بذنبهم في تخلفهم . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم أنفسهم والارض ، فما هي بالارض التي كانوا يعرفون ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة . وكان أحد المتخلفين الثلاثة وهو كعب بن مالك (٥٥) ، أشب

(٥٣) أيلة : مدينة على ساحل البحر الاحمر مما يلي الشام ، وهي آخر الحجاز وأول الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩١) .

(٥٤) الرسول القائد (٣٨٧ - ٣٩٤) .

(٥٥) كعب بن مالك : انظر سيرته في الاستيعاب (٣/١٢٢٢) وأسد القابة (٢٤٧/٤) والاصابة (٥/٢٠٨) . والاستيعاب في نسب الصحابة من

الانصار (١٦٠ - ١٦٢) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

القوم وأجلدهم، وكان يخرج وشهد الصلوات مع المسلمين يطوف بالأسواق، ولا يكله أحد . قال : « ثم غدوت الى السوق ، فبينما أنا أمشي بالسوق ، وإذا نبطي^(٥٦) يسأل عني من نبط الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يشيرون له الي ، حتى جاءني ، فدفع الي كتاباً من ملك غسان وكب كتاباً في سرقة^(٥٧) من حرير ، فاذا فيه : أما بعد ! فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جنك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضية ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، فمدت بها الى تور فسجرت^(٥٨) بها » .

وقصة اتصال النبلي بكعب بن مالك ، يدل على أن الفساسة حلقاء الروم كانوا يترصدون حركات المسلمين وسكناتهم ، وأن مخابرات هؤلاء كانت يقظة أشد اليقظة ، تراقب المسلمين وتعرف تفاصيل أخبارهم ، وأنهم كانوا يحاولون انتهاز القرص لشق المخوف واثارة الاحتاد والنمرات والاختلافات بين المسلمين .

ولكن المسلمين لم يكونوا يجهلون نشاط الفساسة المعادي في اقتناص المعلومات عن أحوال المسلمين وعن قوة جبهتهم الداخلية وضعفها ، وعن آمال المسلمين وآلامهم ، فقد كانوا يراقبون هذا النشاط مراقبة دقيقة ، ولديهم

(٥٦) نبلي : نسبة الى النبل ، وهم الإنباط . والإنباط : شعب سامي ، كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، وعاصمتهم : سلع ، وتعرف اليوم بـ (البتراء) . والإنباط : المشتغلون بالزراعة ، واستعمل أخيراً في إغلاط الناس من غير العرب .

(٥٧) سرقة : شقة من الحرير ، ويقال : السرقة : أحسن الحرير وأجوده .

(٥٨) سجرت بها : أي أحرقتها ، وألهمت بها التور .

وسائلهم الخاصة في مكافحة المخابرات المعادية من جهة في الداخل ، وتسرب مخابراتهم للحصول على المعلومات عن الروم وحلفائهم من جهة أخرى في الخارج ، فكانوا يحمون أنفسهم من مخابرات العدو داخليا وخارجيا . ولعل ايمان المسلم الراسخ - كما هو الحال في قصة كعب - هو الميل الواقعي من محاذير المخابرات المعادية .

ومن الواضح ، أن الفساسة كانوا يلغون الروم بالمعلومات التي يحصلون عليها عن المسلمين ، وبخاصة اذا كان لتلك المعلومات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموقف العسكري الذي يؤثر في مصير الفساسة والروم (٥٩) .

هـ - وتضاعفت الاتصالات بين المسلمين والروم وحلفائهم في السنة السادسة الهجرية (٦٢٧ م) ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي (٦٠) الى هرقل امبراطور الروم والى الأسقف الأعظم في الروم ، وبعث شجاع بن وهب الاسدي (٦١) الى الحارث بن سمر الغساني ملك الفساسة في بلاد الشام ، وحالب بن أبي بلتعة اللخمي (٦٢) الى المقوقس ملك

(٥٩) لبث المخلفون الثلاثة خمسين ليلة يقطعهم المسلمون مقاطعة صارمة ويهجرهم أهلهم حتى زوجاتهم ، ثم تاب الله عليهم ، بعد ما نزل بهم ما نزل من عقاب نفسي صارم ، ليتوبوا ولا يعودوا الى التخلف مرة أخرى ، فشرط التوبة النصوح الابتعاد عن الذنوب . وقد أنزل الله في التوبة عليهم : (وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وثبتوا الى ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ان الله هو التواب الرحيم) ، التوبة (٩ : ١١٨) .

(٦٠) دحية بن خليفة الكلبي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ٩ .

(٦١) شجاع بن وهب الاسدي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

(٦٢) حالب بن أبي بلتعة اللخمي : انظر سيرته المفصلة في كتاب : سفراء النبي صلى الله عليه وسلم .

الواء الركن محمود شيت خطاب

الاسكندرية وهو قيرس بطريرك الاسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجاية الخراج بأرض مصر ، بعثهم يدعو هؤلاء الملوك والرؤساء الى الاسلام ، وكانت بلاد الشام ومصر في حينه ضمن ممتلكات الامبراطورية البيزنطية ، اذ وصل هؤلاء الدعاة أو السفراء في هذه السفارات النبوية في السنة السابعة الهجرية (٦٢٨ م) ، وكانت هذه البلاد قد عادت الى الروم بعد اندحار الساسانيين كما سبق ذكره .

وبارسال هؤلاء السفراء الى هؤلاء الملوك ، اتضحت الرؤية بالنسبة للروم وحلفائهم والمسلمين ، فعرف كل طرف منهم ما يريد صاحبه منه ، وما يستطيع أن يتقبله وما لا يستطيع ، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون امبراطور الروم وملك الفساسة ومقوقس مصر عن كتب ، وعرفوا حقيقة نواياهم تجاه الدين الجديد .

كما عرف امبراطور الروم وماك الفساسة ومقوقس مصر ما يريد النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فتحقق ما كان يسمونه بما راوه عيانا .

وأراد قيصر الروم استقصاء أخبار النبي صلى الله عليه وسلم من أبناء جلدته العرب ، فاستدعى جماعة من تجار العرب — كما روى الامام البخاري في صحيحة من حديث ابن عباس رضى الله عنه — وكان بين الذين استلغاهم هرقل أبو سفيان بن حرب ، فمال أبو سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أخباره ، وناقشه في أقواله مناقشة مستفيضة (٦٣) ، وقد كتب هرقل الى النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على رسالته ، وبث بكتابه الجوابي مع

(٦٣) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح (٧/١ - ٨) وفتح الباري بشرح البخاري (٢٠/١ - ٢٨) ، وانظر البداية والنهاية (٢٦٤/٤ - ٢٦٥) .

دحية (٦٤) ، ويبدو أن قلب هرقل مال الى الاسلام ، ولكنه خاف من الروم على مصيره ان هو أعلن اسلامه (٦٥) .

أما الحارث بن شمر الغساني فلم يسلم ، وأراد أن يسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فمنعه هرقل من المسير اليه ، وأمره بالترث حتى يلتقيه بالقدس وشيكا (٦٦) .

وأما المقوقس ، فقد أكرم سفير النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن نزله (٦٧) ، وبعث معه هدايا الى النبي صلى الله عليه وسلم (٦٨) .

لقد كان في هذه السفارات كسب معنوي لاشك فيه ، فقد ازداد اطلاع الروم وحلفائهم على الدين الجديد وعلى أخبار المسلمين ، واتجه تفكير الناس في بلاد الروم وبلاد الشام ومصر الى الاسلام والمسلمين . كما ازداد اطلاع المسلمين على نظام الحكم في تلك الاصقاع ، واحوال سكانها ومصدر قوتهم وضعفهم ، وطبيعة أرضهم ، مما كان له أثر في النتج لا يمكن تجاهله ولا التقليل من قيمته وأهميته .

ونستطيع أن نلخص الموقف العام قبل الفتح الاسلامي للبلاد التي كانت تحكم من الروم وبلاد الروم الأصلية ، بالنسبة للعلاقة بين العرب والروم قبل الاسلام ، وبالنسبة للعلاقة بين المسلمين والروم بعد الاسلام على عهد النبي

(٦٤) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١) .

(٦٥) الطبري (٦٤٩/٢ - ٦٥٠) وابن الأثير (٢١١/٢) .

(٦٦) طبقات ابن سعد (٢٦١/١) ، وانظر ابن الأثير (٢١٢/٢) والبداية والنهاية (٢٦٨/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١) .

(٦٧) فتوح المغرب (٦٧) .

(٦٨) الطبري (٦٤٥/٢) وابن الأثير (٢١١/٢) .

صلى الله عليه وسلم ، بأن العرب كانوا على صلة وثيقة بالروم ومعرفة تامة بأحوالهم ، وكان نشاطا الجانبين معروفين لكل جانب منهما ، فالفسانة العرب حلفاء الروم المقربون ، والتجارة متبادلة بين الجانبين ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد سافر الى بلاد الشام مرتين في التجارة ، وقد حدثت مناوشات بين المسلمين وحلفاء الروم عدة مرات كان أهمها في سرية مؤتة وفي غزوة تبوك ، وكانت مخابرات الروم متغلغلة في المناطق الاسلامية ، ومخابرات المسلمين متغلغلة في بلاد الروم وبخاصة بلاد الشام ، وكانت هناك مفارقات نبوية بين المسلمين والروم وحلفائهم لم تثر نتائج مادية في نشر الاسلام ، بل أثرت ثمرات معنوية يانعة كما ذكرنا ، وكان هذا الاتصال المستمر تمهيدا للفتح .

٢ - فتوح البلاد المحكومة من الروم :

فتح خالد بن الوليد مدينة بصرى وهو في طريقه من العراق الى الشام سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٤ م) ، فكانت بصرى (بثرأ Bothra) أو (البترأ) أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق (٦٦) . وفي هذه السنة انتصر المسلمون على جيش الروم في معركة اليرموك الحاسمة ، وفتحوا دمشق وساحل دمشق وبيسان وطبرية (٧٠) .

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) فتح المسلمون حمص وبعلبك وقنسرين وحلب وانطاكية وقيسارية وبيسان (٧١) وبيت المقدس (٧٢) ، وبذلك استكمل المسلمون فتح بلاد الشام (سورية ، لبنان ، والاردن ، وفلسطين) وأصبحت جزءاً من الدولة الاسلامية .

(٦٦) ابن الاثير (٤٠٩/٢) .

(٧٠) انظر ابن الاثير (٤٠٠/٢ و ٤٢٧ و ٤٢١) .

(٧١) الطبري (٥٩٦/٢ و ٦٠١ و ٦٠٢ و ٦٠٥) .

(٧٢) الطبري (٦٠٧/٢) وابن الاثير (٤٩٩/٢) .

وفي سنة سبع عشرة الهجرية (٦٣٨ م) فتح المسلمون الجزيرة (٧٣) كما فتحوا ارمينية في تلك السنة أيضاً سنة تسع عشرة الهجرية (٧٤) (٦٤٠ م) سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) ، سنة خمس وعشرين الهجرية (٧٥) (٦٤٥ م) ، وكان فتحها بالتدرج لوعورة أرضها وبعدها عن قاعدة المسلمين في العراق وسعة مساحتها أيضاً . وفتح المسلمون أذربيجان سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٧٦) (٦٤٢ م) وصالحها المسلمون نهائياً سنة خمس وعشرين الهجرية (٧٧) (٦٤٥ م) ، وبذلك طوّقت بلاد الروم الأصلية من الجنوب ومن الشرق تطويقاً كاملاً .

وفي سنة عشرين الهجرية (٧٨) (٦٤٠ م) فتح المسلمون مصر عدا الاسكندرية ، وفي سنة احدى وعشرين الهجرية (٦٤١ م) فتح المسلمون الاسكندرية (٧٩) ، وتقدم المسلمون نحو ليبيا ففتحوها سنة اثنتين وعشرين (٦٤٢ م) سنة ثلاث وعشرين الهجرية (٨٠) (٦٤٣ م) ، وباختصار لم تحل سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٤٩ م) حتى كان أكبر قسم من الولايات البيزنطية في شمالي افريقية شمولاً بالفتح الاسلامي .

لقد كانت انتصارات المسلمين تبعث على الدهشة حتا (٨١) .

-
- (٧٣) الطبري (٥٢/٤) وابن الاثير (٥٢٢/٢) .
 - (٧٤) الطبري (٥٢/٤) وابن الاثير (٥٢٢/٢) .
 - (٧٥) ابن الاثير (٨٢/٢) .
 - (٧٦) الطبري (١٥٢/٤) .
 - (٧٧) ابن الاثير (٨٢/٢) .
 - (٧٨) ابن الاثير (٥٦٤/٢) .
 - (٧٩) البلاذري (٢٠٤) .
 - (٨٠) ابن الاثير (٢٥/٢) .
 - (٨١) الامبراطورية البيزنطية (٣٦٠) .

٢ - فتح أبي عبيدة بن الجراح (٨٢) :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) بعد فتح حلب ، مار أبو عبيدة من حلب الى أنطاكية ، وقد تحصن بها كثير من الناس من قنشرين وغيرها . ولما فارق حلب لقيه جمع العدو ، فهزمهم والجأهم الى أنطاكية وحاصرها من جميع نواحيها . ثم ان أهل أنطاكية صالحوه على الجلاء أو الجزية ، فجلا بعضهم وأقام بعضهم ، فآمن الذين بقوا في المدينة . ولكن أهل أنطاكية نتفخوا ، فوجه أبو عبيدة اليهم عياض بن غنم^(٨٢) وجيب بن مسلمة^(٨١) ، فأعادا فتحها من جديد .

وكانت أنطاكية غليظة الذكر عند المسلمين ، فلما فتحت كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبي عبيدة : « أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين ، واجملهم بها مرابطة ، ولا تحبس عنهم العطاء »^(٨٥) .

٤ - فتح خالد بن الوليد :

في سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) ، وجه أبو عبيدة بن الجراح خالداً وهو بـ (مَسْبُج) الى مَرْعَش ، ففتحها وأجلى أهلها وأخربها كما أنه فتح حصن الحَدَث^(٨٦) .

(٨٢) أبو عبيدة بن الجراح : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح الشام ومصر (٨١/٥٤) .

(٨٣) عياض بن غنم : انظر سيرته المفصلة في كتاب قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢٥ - ٤٣٥) .

(٨٤) جيب بن مسلمة : انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب .

(٨٥) ابن الأثير (٤٩٥/٢) .

(٨٦) تاريخ أبي الفدا (١٦٠/١) .

٥ - فتح حبيب بن مسلمة :

أمد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عياض بن غنم بحبيب بن مسلمة ،
فقدم على عياض بالجزيرة ، فقاتل حبيب تحت لواء عياض وفتح شمشاط (٨٧)
وملطة عنوة ، ثم نقض أهلها الصلح ، فلما ولى معاوية الشام وجه إليها حبيب
ابن مسلمة أيضاً ، ففتحها عنوة ورتب فيها جنداً من المسلمين مع عاملها (٨٨) .

وقد جرى فتح شمشاط وملطة سنة سبع عشرة الميلادية (٦٣٨ م) .

وارتبكت أمور ارمينية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان
حبيب بن مسلمة يجاهد في تلك المناطق ، وكان على الكوفة الوليد بن
عقبة (٨٩) ، فكتب إليه عثمان : « ان معاوية بن أبي سفيان كتب الي يخبرني
أن الروم قد أجلبت على المسلمين في جموع كثيرة ، وقد رأيت أن يسددهم
أخوانهم من أهل الكوفة ، فابعث اليهم رجلاً له فجدة وبأس في ثمانية آلاف
أو تسعة آلاف من المكان الذي يأتيك كتابي فيه ، والسلام » (٩٠) .

وقام الوليد بن عقبة في الناس وأعلمهم الحال ، وندبهم مع سلمان بن
ربيعة الباهلي ، فانتدب معه ثمانية آلاف ، ومضوا حتى دخلوا مع أهل الشام
الى أرض الروم ، فشنوا الغارات على أرض الروم مع حبيب ، وأصاب الناس
ما شاؤوا ، وافتحوا حصوناً كثيرة (٩١) .

(٨٧) شمشاط : مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات ، انظر التفاصيل في
معجم البلدان (٢٩٢/٥) ، وهي غير سمساط .

(٨٨) ابن الأثير (٥٣٥/٢) .

(٨٩) الوليد بن عقبة بن أبي معيط : انظر سيرته في كتاب قادة فتح العراق
والجزيرة (٤٤٩ - ٤٦٨) .

(٩٠) ابن الأثير (٨٢/٢) .

(٩١) ابن الأثير (٨٢/٢ - ٨٤) .

وبلغ حبيب بن مسلمة أن بطريق (أرميناكس) (١٢) وهي بلاد (ملطية) و (سيواس) وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية واسمه الموريان قد توجه نحوه في ثلثين ألفاً من الروم (١٣) . وأجمع حبيب على تبليت الروم ، فيبتهم وقتل من وقف له ، وانتصر على الروم ، فعاد ادراجه الى مقره في ارمينية ، وقد جرت هذه المعركة سنة خمس وعشرين الهجرية (٦٤٥ م) .

٦ - فتح سلمان بن ربيعة الباهلي :

فتح سيواس وقونية وأقصرا وما والاها من البلاد الى خليج القسطنطينية (البسفور) مع حبيب بن مسلمة ، فقد فتحا هذه المنطقة التاسعة من بلاد الروم متعاونين على أفضل ما يكون التعاون ، وكان سلمان اليد اليمنى لحبيب في فتحه .

٧ - فتح محمد بن مروان بن الحكم :

في سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، استعمل عبدالملك بن مروان أخاه محمداً على الجزيرة وارمنية ، فغزا منها وأثنى في العدو ، وهزم الروم ، وقتل وسبى وغلب على البلاد .

وفي سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣ م) غزا الروم صيفا ، فبلغ أندولية وعاد منها منتصرا .

وفي سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤ م) ، غزا الروم صيفا ، فخرجت

(١٢) أرميناكس : هي بلاد ملطية وسيواس وأقصرا وقونية وما والاها من البلاد،
والى خليج القسطنطينية ، انظر ابن الأثير (٨٤/٢) .
(١٣) ابن خلدون (١٠٠١/٢) وزاد ابن الأثير (٨٤/٢) : ملطية وسيواس
وأقصرا ... الخ .

الروم في جمادي الاولى من هذه السنة من قبل مرعش ، فالتقى المسلمون
بمق مرعش بالروم ، فاقتلوا قتالا شديدا ، فهزمت الروم ، وأتبعهم المسلمون
يقتلون ويأسرون .

وفي سنة ست وسبعين الهجرية (٦٩٥م) ، غزا الروم من ناحية ملطية .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا ارمينية ، فبزمهم ، ولكنهم
قتلوا وكيله عليها غدرا بعد أن صالحهم محمد .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ، غزا ارمينية ، فصاف فيها
وشتى .

وهكذا قضى أكثر سني حكمه للجزيرة وارمينية بالنزو ومباولة الروم
وأهل ارمينية ، فاستعاد فتح ارمينية وشرطا من بلاد الروم .

٨ - فتح مسلمة بن عبد الملك :

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) ، غزا مسلمة أرض الروم . وفي
سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) ، غزا الروم فأنخن فيهم بناحية المصيصة ،
وفتح حصونا كثيرة منها حصن بولق واخرام وبولس وقسيم وقتل من
المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم .

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن
عبد الملك بلاد الروم ، فاصطدم الطرفان فانهمز الروم ، ثم أعادوا الكرة فانهمز
المسلمون . ولكن العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس الساقة ، وقام
المسلمون بهجوم مفاد ، فانهمز الروم حتى دخل المسلمون (طوانة) بعد قتال
وشتوا فيها . كما فتح مسلمة في هذه السنة حرثومة وثلاثة حصون : حصن
قسلطنين وحصن غزالة وحصن الأخرم .

وقد تكرر فتح حصن الاخرم سنة سبع وثمانين وثمان مائة الهجرتين،
ومن المحتمل أن الروم استعادوه ، فعاد اليه مسلمة وفتحته مرة بعد أخرى .
وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة والعباس بن الوليد
الروم ، ففتحوا عبورية وافتتح هرقله وقمونية .

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح
الحصون الخمسة التي بسورية .

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) ، غزا أرض الروم ، ففتح
حصونا ثلاثة ، وجلا أهل سوسة الى بلاد الروم .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح
مائة وحصن الحديد وغزاة وبرجة من ناحية ملطية ، وكان مسلمة قد فتح
حصن الغزاة سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن الروم استردوها
من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا مسلمة الروم ، فافتتح
سندرة ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن
عاصمتهم القسطنطينية ، ومن الغزو مباشرة عاد مسلمة الى الديار المقدسة ،
فحج بالناس في هذه السنة .

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) ، غزا مسلمة الصائفة في بلاد
الروم .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، غزا مسلمة أرض الوضاحية
ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح الذي كان من قادة مسلمة المؤوسين .
وفيهما أيضا غزا برجة وحصن ابن عوف ، وافتتح أيضا من جديد حصن

الحديد وفتح سرورا ، وشتى بأرض الروم ، وكان مسلمة قد فتح حصن الحديد وبرجة سنة ثلاث وتسعين الهجرية كما ذكرنا ، والظاهر أن هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

وفي هذه السنة بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية ، وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) فرض مسلمة الحصار على القسطنطينية ، وبعد قتال عنيف أخفق الحصار وانسحب مسلمة من القسطنطينية سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، وتفاصيل الحصار في سيرة مسلمة مفصلة ، ويستلغ أن يتدارسها من يريد في هذا الكتاب : قادة فتح بلاد الروم .

٩ - فتح عبدالله بن عبد الملك بن مروان :

في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) ، غزا عبدالله بلاد الروم ، ففتح حصن سنان من ناحية المصيصة .

وفي سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٢م) ، غزا عبدالله الروم ، ففتح طرندة .

وفي سنة أربع وثمانين الهجرية (٧٠٣م) ، فتح عبدالله المصيصة ، فبناها وبنى حصنها على أساسها القديم ، ووضع بها سككاً من المسلمين ، فيهم ثلاثمائة رجل اتخبهم من ذوي اليأس والنجدة المعروفين ، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك ، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن .

وجه قواته في هذه السنة الى حصن سنان ، ففتحه ، ويبدو أنه فتح هذا الحصن ثانية ، لانه كان قد فتحه سنة اثنتين وثمانين الهجرية كما ذكرنا .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

١٠ - فتح العباس بن الوليد بن عبدالمالك :

في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، فتح العباس بالتعاون مع مسلمة ابن عبدالمالك بعض بلاد الروم منها طوانة .

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، غزا مسلمة بن عبدالمالك ومعه العباس أرض الروم ودخلها جميعا ، ثم تفرقا ، فافتح العباس (أذولية) ، ووافق من الروم جمعا فجزهم ، كما غزا العباس الصائفة من ناحية البثندون .

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م) غزا العباس الروم حتى بلغ الأرزن في رواية ، وحتى بلغ سورية في رواية أخرى ، والثانية أصح ، لأن ذلك يجمعه بقوات مسلمة .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح سبطية (سبطلة = سبطية) ، والظاهر أنها مدينة سيباط . كما فتح في هذه السنة المرزبانين في منطقة طرسوس ، وفتح طولس (طرسوس) .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، فتح العباس مدينة أنطاكية كما فتح قارملة .

والمعروف أن أنطاكية فتحها أبو عبيدة بن الجراح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦م) كما ذكرنا ، ولكن الروم استعادوها لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب أمور المسلمين ، فأعاد العباس فتحها من جديد .

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) ، غزا العباس بلاد الروم ، ففتح طولس (طرسوس) والمرزبانين وهيرقلة .

وقد تكرر فتح طولس والمرزبانين مرتين : مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ،

ومرة سنة خمس وتسعين الهجرية ، ولعل سبب ذلك هو في اختلاف المؤرخين بالتوقيت ، والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف .

وقد يكون سببه ، ان العباس فتحها مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، فاتتقضا ، فأعاد فتحها من جديد سنة خمس وتسعين الهجرية .

أما هرقله ، فقد فتحها مسلمة بن عبدالمك سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) ، فمن المحتل أن الروم استعادوها من المسلمين ، فجدد فتحها العباس ، وأعادها كره أخرى الى حوزة المسلمين .

وفي سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) ، غزا العباس أرض الروم ، ففتح مدينة (رَسْلَة) أو (دلسه) أو (أواسي) .

١١ - فتح عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالمك :

في سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا عبدالعزيز بلاد الروم ، فبلغ حصن غزالة في هذه الغزوة وفتحها .

ومن المعروف أن هذا الحصن كان قد فتحه مسلمة بن عبدالمك سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧م) ، مما يدل على أن الروم استعادوه من المسلمين بعد فتحه ، فأعاده عبدالعزيز الى سيطرة المسلمين مرة أخرى .

١٢ - فتح داؤود بن سليمان بن عبدالمك :

في سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، جهز سليمان بن عبدالمك الجيوش لفتح القسطنطينية ، واستعمل ابنه داؤود على الصائفة ، فافتتح حصن المرأة .

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) ، غزا داؤود أرض الروم ، ففتح حصن المرأة ثانية ، كما فتح حصن الأجر .

الواء الركن محمود شيت خطاب

وقد تكرر فتح حصن المرأة في هذه السنة ، وسبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين الهجرية ، مما يدل على أن الروم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلة المدافعين عنه من المسلمين على ما رجعته .

وكان فتح هذين الحصنين في هذه السنة ، لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الاسلامية الزاخفة لفتح القسطنطينية ، لأنها الشريان الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هذنها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية بالقسطنطينية ، وعليها تتحرك الامدادات البشرية والادارية من تلك القواعد الى الجيوش الزاخفة ، وكل قائد لا بد له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون .

وقد كان داؤود بأمرة عيه مملكة قائدا مرؤسا في ملجعة حصار القسطنطينية ، والظاهر أنه استعاد فتح حصن المرأة وفتح حصن الأجرب ، وهو في طريقه الى القسطنطينية ، اذ كان يومئذ قائدا لأحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الروم . وبقي داؤود مع عيه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦م) حتى تم انسحاب مملكة عن حصار القسطنطينية بعد وفاة سليمان ابن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٧م) ، بعد أن بقي المسلمون يحاصرون القسطنطينية ثلاثين شهرا .

١٢ - فتح معاوية بن هشام بن عبد الملك :

في سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنا يقال له : حصن مليية ، وأصيب معه قوم من أهل أنطاكية بخسائر في الأرواح .

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨م) ، غزا معاوية أرض الروم ، ففتح حصنين كبيرين من حصونهم : حصن صمكة والبوة . وصلة هذه هي

صِمالو التي تقع قرب المصيصة وطرسوس .

وفي سنة احدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سعيد بن هشام بن عبد الملك أرض الروم على الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية ، فوغل معاوية في بلاد الروم ، وانصرف ولم يلق كيدا .

وفي سنة اثنتى عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فافتتح خَرْشَنَةَ من ناحية ملطية وحرقت فرنديّة من ناحية ملطية أيضا .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) ، غزا معاوية بلاد الروم ، فربط في ناحية مرعش ثم رجع .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢م) ، غزا معاوية أرض الروم على الصائفة اليسرى ، وغزا أخوه سليمان بن هشام أرض الروم على الصائفة اليمنى ما يلي الجزيرة ، فأصاب معاوية ربض أقرن ، وبلغ سليمان قيسارية . والظاهر أن أقرن تقع في ناحية ملطية ، استنادا الى اتجاه الصوائف اليسرى وسير الحوادث .

وفي سنة خمس عشرة الهجرية (٧٣٣م) ، غزا معاوية الروم على الصائفة حتى أتى على أفلاغونيا ، وجرت هذه الغزوة في شهر رمضان ، وافتتح حصونا . وفي سنة ست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤م) ، غزا معاوية بلاد الروم على الصائفة ، كما غزا سنة سبع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥م) ، فبلغ في غزوته سييرة وبلغت مراياه مرده .

وفي سنة ثمانى عشرة ومئة الهجرية (٧٣٦م) ، غزا معاوية وأخوه سليمان أرض الروم .

الواء الركن محمود شيت خطاب

١٤ - فتح مروان بن محمد بن مروان :

في سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤م) في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان ، تولى مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أول قيادة عسكرية له ، وكان عمره يومئذ ثلاثين سنة .

فقد تولى الصائفة اليمنى ، فافتح قونية من أرض الروم وكسح التي تعد من أرض الجزيرة .

وكان مروان مع مسلمة بن عبد الملك من سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥م) حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣١م) في جهاده الذي امتد من الجزيرة الى بلاد الروم وأذربيجان وارمينية ، فعزل هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة ، وولى مروان بن محمد على الجزيرة وأذربيجان وارمينية ، فكان نشاط مروان في الفتوح منصبا على ارمينية ، وبقي في قيادته مجاهدا حتى سنة احدى وعشرين ومئة ، ونشاطه في هذا الميدان في سجل فتح ارمينية نشاط متميز مرسوم .

١٥ - فتح محمد الفاتح :

فتح محمد مدينة القسطنطينية عاصمة الروم ، وكانت خطة الفتح وتنفيذها وتوقيت عمليات الفتح ونتائج الفتح مهمة جدا ولا تزال وستبقى كذلك ، ولايسكن اختصار تلك الأعمال المجيدة بسطور أو كلمات ، فلايسد من الرجوع اليها في كتاب : قادة فتح الروم ، لاستيعاب تفاصيلها كما ينبغي في سيرة : محمد الفاتح ، الذي كان آخر قادة فتح بلاد الروم تسلسلا ، وأهمهم انجازا وفتحا ، وحبه أن يقال عنه : انه فاتح القسطنطينية ، وكما به بذلك فخرا وذكرنا .

ولم يقتصر فتح محمد الفاتح على القسطنطينية على أهميته ، بل شمل فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى ، وفي أوروبا ، مما تجد تفاصيله في فتوح هذا القائد العظيم الذي أصبحت فتوحاته معروفة ومقدرة ليس على النطاق الاسلامي وحده ، بل على النطاق العالمي أيضا .

عبرة الفتح

استهان الروم بالعرب بعامة وعرب الجزيرة العربية بخاصة ، قبل الاسلام ، وبعد الاسلام . واذا كان هناك ما يسوغ لهم هذه الاستهانة بالعرب قبل الاسلام ، لتفرقتهم وتناحرهم وضعف قوتهم وانصرافهم الى المنافع الشخصية المادية والمعنوية بحدود المكاسب الفردية لفاية نطاق العشيرة أو القبيلة ، دون أن يكون للصلحة العربية العامة أهمية تذكر في ميزان العربي قبل الاسلام . كما أن العرب كانوا يؤمنون بعقائد شتى ، وكانوا في سوادهم الأعظم مشركين ، فكانت تلك العقائد المتخلفة تفرق ولا توحد ، وتهدم ولا تبنى ، وتأخر ولا تقدم ، وتثير بين معتنقيها العداوة والبغضاء والحقد والتناحر ، ولعل : « أيام العرب في الجاهلية »^(٩٤) في حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرهما ، تحكى قصة الاقتال المستمر بين الأشقاء العرب لأسباب تافهة ، فكان بأسهم بينهم شديدا ، حتى قال قائلهم :

(٩٤) انظر كتاب : أيام العرب في الجاهلية - محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك - القاهرة - ١٩٤٢ ، فقد سجل التاريخ للعرب (٨١) اقتتالا في مدة قصيرة ، وما لم يسجله أكثر عددا . والجاهلية ليست من الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكن من الجهل الذي هو السفة والغضب والانفة ، انظر فجر الاسلام (٨٦/١) . والجاهلية : زمان الفترة بين رسولين . والجاهلية : ما كان عليه العرب من الجبن والضلالة قبل الاسلام ، انظر معجمات اللغة .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

ومَن تكن الحضارة أعجبه
فأي رجال بادية ترائنا

ومَن ربط الجحاش فأن فينا
قنا سلباً (٩٥) وأفراً حيانا

وكُنْ إذا أغرَنَ على قبيل
فأعوزهنَّ نهبٌ حيث كانا (٩٦)

أغرَنَ على الضَّبَابِ على حلالٍ
وضبَّةٌ اتته من حان حانا (٩٧)

وأحياناً على بكرٍ أخينا
إذا مالم نجد إلا أخاباً (٩٨)

هؤلاء هم عرب الجزيرة العربية ، أنفسهم عليهم لا على أعدائهم ، فهي
أشد ضرراً عليهم لأنها أعدى أعدائهم ، فلا وزن لهم في موازين القوى
المتصارعة .

أما عرب العراق ، فحلفاء الفرس ، وهم المناذرة ، وأما عرب بلاد الشام ،
فحلفاء الروم ، وهم النُصَاصَة ، وكثيراً ما نشبت الحرب بين النُصَاصَة والمناذرة
لا لمصلحة العرب ، بل لمصلحة الفرس أو الروم ، أما المصلحة العربية فعائبة

(٩٥) قنا : جمع قناة ، والقناة : الرمح الأجوف . وسلباً : أي طوال .

(٩٦) القبيل : الجمع من الناس .

(٩٧) الضباب : اسم قبيلة . والحلال : المجاور ، يقال : حى حلال : أي مجاور
مقيم بالقرب منه . يقول : أغرَنَ على الحى المجاور لحينهم من قبيلتي ضباب
وضبَّة . وقوله : من حان حانا : أي من جاء أجله فهو لا بد هالك .

(٩٨) الشعر للقطامي الشاعر ، وهو شاعر جاهلي مشهور .

بلاد الروم

عن الميدان • أما عرب الجزيرة ، فهم تارة مع الفرس ، وتارة مع الروم ، ولم تقم لهم دولة بعد دولة الحضرة التي قضى عليها سابور الاول (٢٤١م - ٢٧٢م) ، ومن يومها كانوا مع القوي الذي استولى على بلادهم ، على الضعيف الذي غادر بلادهم ، وكانوا يكدون ليدفعوا الضرائب الفادحة للحكام ، ويمسئون الاضطهاد الديني حتى من أبناء دينهم الروم ، لاختلاف المذاهب وما يجره اختلافها من ويلات •

وعرب الهلال الخصيب قبل الاسلام : العراق ، وبلاد الشام ، والجزيرة ، لا وزن لهم في موازين القوى المتصارعة ، لأنهم يعملون لمصلحة الفرس والروم لا لمصلحتهم ، فطاعتهم مسخرة للأجنبي لا للعرب •

وجاء الاسلام ، فوحد عقائد العرب المتناقضة في عقيدة واحدة هي : الاسلام ، بعد أن ألغى تلك العقائد الفاسدة ، ووحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وغرس فيهم روح الضبط والطاعة والنظام ، وظهر نفوسهم ، ونقى أرواحهم ، وخلق فيهم انجاساً مادياً ومعنوياً ، وعلمهم التضحية من أجل المبادئ لا من أجل الأهواء ومن أجل المصلحة العامة للمسلمين لا من أجل المصلحة الشخصية للأفراد أو الجماعات ، فأصبحت لذلك كله وبذلك كله قوتهم المبعثرة وجهودهم المضاعة ، تعمل بنظام واحد ، وطاعة عالية ، بقيادة واحدة ، لهدف واحد ، وبذلك أصبح العرب قوة منظمة هائلة ، وجدت لها متنفساً في توحيد الجزيرة العربية أولاً ، وفيفتح الاسلامي ثانياً ، وأصبح العرب بعد الاسلام ، غير العرب قبل الاسلام قوة واقتداراً ومثلاً علياً •

ولكن الروم استهانوا بالعرب بعد الاسلام ، كما استهانوا بهم قبل الاسلام ، ولم يكتشفوا أثر الاسلام في العرب بالرغم من النذر المباشرة التي كشفها العرب المسلمون للروم وحلفائهم من الفساسنة والقبائل العربية الاخرى

على عهد الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، فكانت تلك الاستهانة التي لا مسوغ لها هي الخطأ الوقي العظيم الذي وقع فيه الروم والذي لم يستطيعوا تلافيه ولا اصلاحه أبداً ، وأدى فيما أدى اليه الى فتح المسلمين لممتلكات الروم خارج بلادهم الأصلية ، وفتح جزء من بلادهم أيضا .

لقد كانت السرايا التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم للتعرض بحلفاء الروم من القبائل العربية على تخوم بلاد الشام الجنوبية ، انذاراً مباشراً للروم بصحوة العرب بعد الاسلام ، تلك السرايا التي كانت قبل سرية مؤتة مباشرة كما هو معروف .

والى جانب تبليغ الدعوة الاسلامية الى قادة العالم المعروفين في حينه من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان قائداً لا يفض الطرف عن أي مظهر عدواني يحط من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها ، فلم يكت ازاء استشهاد رسوله الحارث بن عسيّر الازدي^(٩٩) الذي بعثه الى ملك الفساسنة في بصرى ، فأرسل في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م) أحد قاداته المقربين اليه ، وهو زيد بن حارثة الكلبي ، على رأس سرية تعددها ثلاثة آلاف مجاهد الى الحدود الشمالية الغربية من بلاد العرب . وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء الى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، التقى المسلمون بقوات الروم .

ومهما تكن الغاتمة التي لقيتها سرية مؤتة ، الا أن نتائجها وآثارها كانت

(٩٩) الحارث بن عسيّر الازدي : انظر سيرته في الاستيعاب (٢٩٧/١) واسد الغابة (٢٤١/١) والاصابة (٢٩٩/١) .

بعيدة المدى ، فبينما رأى الروم في تلك السرية غارة من الفارات التي اعتاد البدو على شنّها للنهب والسلب ، كانت سرية زيد هذه في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها ، فهي حرب منظمة كانت لها مهمة خاصة ، جعلت العرب المسلمين يتطلعون جدياً لفتح بلاد الشام .

وفي السنة التالية ، أي في السنة التاسعة الهجرية (٩٣٠ م) ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة تبوك ، فأظهر قوة المسلمين للروم وحلفائهم بخاصة ، وللمشركين وغير المسلمين من أهل الكتاب بعامّة ، ثم عاد أدراجه الى المدينة المنورة .

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية (٦٣٢ م) ، أعد النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً بقيادة أسامة بن زيد^(١٠٠) المهاجرة الروم ، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم التحق بالرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول من تلك السنة (كانون أول - ديسمبر - ٦٣٢ م) قبل حركة جيش أسامة الى هدفه ، فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم ، وولى وجوههم شطر هدف عينه لهم . . . وهكذا وقف الرسول القائد عليه الصلاة والسلام بثاقب نظرة على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوى دعوته انما موطنها أرض الشام حيث الروم وحلفاؤهم الفساسة ، وقد أثبتت حوادث الفتح الاسلامي في أرض الروم صدق هذه الاشارة ، فكان الروم أشد المحاربين عنادا .

ولكن الروم بقدر اهتمام العرب المسلمين بهم ، واعداد العدة لهم ، واستكمال الاستحضارات لقتالهم ، كانوا لا يزالون يتصورون أنه لا فرق بين

(١٠٠) انظر ترجمته المفصلة في كتاب : قادة فتح الشام ومصر (٢٢ - ٥١) .

العرب قبل الاسلام وبين العرب بعد الاسلام ، وأن الحرب التي يشنها العرب المسلمون كالحرب التي كان يشنها العرب قبل الاسلام ، فالحرب العربية غارات تلتهم بسرعة وتخدع بسرعة دون أن تترك أثراً ولا تأثيراً ، فكانت استهانة الروم بالعرب بقدر اهتمام العرب بالروم والاستعداد الكامل المفصل لحربهم .

ويبدو أن من أسباب استهانة الروم بالعرب ، خروج الروم من الحرب البيزنطية الفارسية (٦١٠م - ٦٢٨م) متصرين على الترس ، وبذلك أصبحوا أقوى دول العالم في حينه ، فمن يكون العرب الضعفاء الى جانب الروم الاقوياء كما أن النصر - وبخاصة في حرب طويلة الأمد - على دولة قوية كالامبراطورية الساسانية ، يؤدي الى الغرور الذي من نتائجه الاستهانة بالأعداء ، ويؤدي الى الاسترخاء للتتعثر بشرات النصر اليانعة .

والحق أن العرب غير المسلمين ، استهولوا قتال الروم ، فقال قائلهم وهم يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : « أَتُحْسِبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ (أي الروم) كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؟ وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مَقْرَنِينَ فِي الْجَبَالِ » ، ارجافاً وترهيباً للمؤمنين (١٠١) ، فما كان هؤلاء العرب الذين لم يسلوا يصدقون بأن العرب المسلمين قادرون على حرب الروم ، ولكن العرب المسلمين كانوا واثقين بنصر الله ، ناذوا كان العرب أنفسهم يستهينون ببعضهم الى هذا الحد ، فلا لوم على الروم في استهانتهم بالعرب أيضاً .

والدرس الاول الذي تعلمه ، هو أن الاستهانة بالعدو ، تؤدي الى أوخم

(١٠١) سيرة ابن هشام (١٨٠/٤) .

العواقب ، وأن القوى مهما يبلغ من القوة ، لا عذر له في الاستهانة بالضعيف
مهما يبلغ من الضعف ، والحكمة كل الحكمة في المثل العربي القديم : « إذا
كان عدوك نملة ، فلا تنم له » .

وكان الأجدر بالروم وحلفائهم ألا يستهينوا بالعرب المسلمين وأن يتدبروا
أثر الاسلام في العرب بجدية وحزم ، ويمعدوا للعرب المسلمين ويستعدوا لهم
من بعد سرية حسى بقيادة زيد بن حارثة الكلبي التي كانت في شهر جمادى
الآخرة من سنة ست الهجرية ، حيث انكشفت نيات العرب المسلمين في تصديهم
للموم وحلفائهم العرب غير المسلمين ، أو بعد السفارة النبوية الى ملك
الفساسنة وامبراطور الروم هرقل التي كانت في أواخر السنة السادسة الهجرية
وأوائل السنة السابعة ، لأن تعاليم الاسلام في الجهاد : الاسلام ، أو الجزية ،
أو القتال ، قد انكشفت أيضاً . الا أن الروم لم يمعدوا ويستعدوا للمسلمين
من العرب الا في سنة ثلاث عشرة الهجرية قبيل معركة اليرموك الخامسة ،
فخسروا خمس سنوات في سبات وغفلة ، وكان العرب المسلمون سنة ثلاث
عشرة الهجرية غير العرب المسلمين سنة ست الهجرية ، اذ اصبحوا أكثر عدداً
وعُدداً أو أقوى ساعداً ومدداً ، وأكثر خبرة ورشداً ، وكان القطار بعد يقظة
الروم من اغناءتهم الطويلة قد فاتهم الى غير رجعة .

ومن تجارب الأمم المفيدة التي استخلصتها من تاريخ الحرب قديماً
وحديثاً ، أن الاستهانة بالعدو تؤدي الى الانسحاب في الحرب ، وان في تقدير
الموقف للقضايا المصيرية - ومنها الحرب - يجب أن يضع أسوأ الاحتمالات
في الحسبان ، فاذا كان هناك خطر يهدد الأمة في مصيرها بمعدل واحد بالمئة ،
فلا بد من اعتبار ذلك الخطر مئة بالمئة ، والاعداد والاستعداد بالنسبة لمئة بالمئة

لدرء هذا الخطر ، اذ لا ضرر من المبالغة بالحذر واليقظة ، وانا الضرر بالفلة والاسترخاء .

والدرس الثاني الذي تعلمه ، هو أن الاختلافات المذهبية في الدين الواحد ، قد تجر الى عواقب وخيمة تضر بحاضر الأمة ومستقبلها وتفرق وحدة البلاد .

لقد كان من الطبيعي جداً أن يؤدي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد أبناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتسكهم بمقائدها ، كما كان طبعياً أن يؤدي ذلك الى تشييط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع أنه لما عاد الروم الى هذه الأقطار ، وجدوا أن جميع بطاركتها هم من أتباع الطبيعة الواحدة ، فعادوا الى معالجة الانشقاق في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف (١٢) ، وكان الامبراطور وأهل دولته يقولون : ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، أما رعيته في مصر والشام والجزيرة ، فكان أكثرهم يقول بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة ، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف وافق هرقل بالقول : بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، لفرض التوفيق بين المسيحيين من رعايا الروم . ونشر الامبراطور منشوراً بهذا المعتقد ، فقبل به أكثر الأساقفة الشرقيين الا بطريرك القدس وغيره ، فشق ذلك على الامبراطور ، وعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم . وأصبح الانقسام مزدوجاً : الامبراطور ومن والاه في ناحية ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل حوران وسائر أهل سورية ومصر في ناحية ، والناطرة وهم أهل العراق والجزيرة في ناحية ثالثة ، فضلاً عن طوائف أخرى منهم الخاليون

(١٠٢) الروم (١/٢٣٠ - ٢٣١) .

الذين يقولون بأن المسيح لم يُصلب حقيقة ، وإنما صلب رجل آخر مكانه ، ومنهم القائلون بعدم الخضوع للرؤساء ، ثم إن اليعاقبة أيضاً كانوا أقساماً مما يطول شرحه .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة ، لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل الأمر أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى حوزة الفرس ، كما حصل بالأرمن ، فإنه لما حرم المجمع القسطنطيني القول بالطبيعة الواحدة ، جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والأرمن منهم ، فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفرس . وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص ، فقد كانوا عوناً له في فتحها (١٠٣) ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً ، كما لم يقاتل أهل الجزيرة دفاعاً عن بلادهم كما ينبغي ، ولم يسندوا الروم بقوة وأمانة كما يجب ، « فكانت الجزيرة أسهل البلاد فتحاً » (١٠٤) ، لأنهم كانوا على الروم مذهبياً أيضاً .

ولكن التناقض المذهبي كان سبباً واحداً من أسباب فتح أرض الشام ومصر والجزيرة ، فهناك أسباب كثيرة لهذا الفتح ، لعل أهمها : الحرب العادلة التي خاضها المسلمون حينذاك ، فلا ظلم ولا عدوان ولا انتهاك للأعراض ، ولا انتهاك للأموال ، بعكس الروم الذين كانوا يظلمون ويمتدون ويتهكون للأعراض ويتهبون الأموال . ومن أسبابها العدل الذي أشاعه المسلمون في البلاد المفتوحة ، والتسامح الذي لمسه أهل تلك البلاد ، والمثل العليا التي كان المسلمون نماذج حية لها تنشي على الأرض : « وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسي ، وقد ترك العرب الناس أحراراً في أمور دينهم ، وأظفل

(١٠٣) التمدن الاسلامي (١/٤٢) - جرجي زيدان - ط ٢ - القاهرة - ١٩١٤ .

(١٠٤) الطبري (٤/٥٤) وابن الأثير (٢/٥٣٢) .

العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فقال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من السدة والطائفة « (١٠٥) » ، « من ذلك أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس ، أبدى من التسامح نحو أهلها ما آمنوا به على دينهم وأموالهم وعرفهم وعاداتهم ، ولم يفرض عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم » (١٠٦) ، « وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله في فتوح الأمم الأخرى ، ذلك أن العرب انشأوا بسرعة فائقة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، وتكثروا بحسن سياستهم من اقناع أمم كثيرة على اعتناق دينهم ولغتهم وثقافتهم ، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود والفرس الذين رضوا أيضاً بامتدادات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم » (١٠٧) . « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب » (١٠٨) ، وقد ذكرت شهادة غير عربي ولا مسلم ، لأن فضل العرب المسلمين في هذا المجال كان واضحاً معروفاً لا يخفى على صديق وغير صديق فلا يمكن إخفاء الشئ في وضع النهار .

وقد ذاع خبر العدل والتسامح والمثل الإسلامية العليا التي يتحلى بها المسلمون في حربهم وسلامهم ، فسهلت تلك الأخبار الطيبة على المسلمين مهمة الفتح ، وجعلت كفتهم ترجح على كفة الروم في ميزان الحق والعدل والانصاف . لقد اتصر العرب المسلمون الأولون بسمعتهم الحسنة في العدل

(١٠٥) حضارة العرب - كوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - القاهرة -

١٩٥٦ - ص (١٦٦) .

(١٠٦) حضارة العرب (١٦٨) .

(١٠٧) حضارة العرب (١٥٣) .

(١٠٨) حضارة العرب (٢٢٥ - ٢٣٥) ، وانظر فصل : الفتوح الإسلامية ومعاملة

العرب للأمم المغلوبة من كتاب : أصالة الحضارة العربية (٢٤٠ - ٢٤٣)

- الدكتور ناجي معروف - بيروت - ١٣٩٥ هـ - ط ٣ .

والتسامح ومكارم الأخلاق على الروم والفرس وحلفائهم ، أكثر من انتصارهم بالقوة الضاربة ، والمثل العليا تبقى ، والقوة الضاربة لا تبقى .

وإذا كنا قد تعلمنا من الروم درساً حيوياً يبرز محاذير التناحر المذهبي وأثرها المدمر في حاضر الأمة ومستقبلها ، فعلينا أن نتعلم من أجدادنا العرب المسلمين في الصدر الأول من أيام الفتح الاسلامي ، أنهم انتصروا بالجهاد الذي هو الحرب العادلة لتكون كلمة الله هي العليا ، ان (الفتح) سيف وكتاب ، والسيف يتبدد أثره ، والكتاب لا يتبدد أثره أبداً ، والفرق بين الفتح وبين الاستيلاء أو السيطرة ، هو أن الفتح قتال ومبادئ ، وغيره قتال بدون مبادئ ، وكل فتح تحرير ، ولكن ليس كل تحرير فتحاً ، فقد يكون التحرير بالقوة وحدها دون مبادئ ، وحين عاد النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة المكرمة وهي بلده الأمين منتصراً ، سميت عودته : فتح مكة ، وسماها الله في كتابه العزيز فتحاً ، فقال : (انا فتحنا لفتحاً مبيناً) (١٠٩) ، وفي القرآن الكريم سورة الفتح ، وقد وردت مادة (فَتَحَ) في الكتاب العزيز بنحو ثمان وثلاثين آية ، منها سبع عشرة آية في معنى (الفتح) (١١٠) الذي هو الجهاد لاعلاء كلمة الله بالانصاع لا بالاكراه ، وبالحكمة والموعظة الحسنة لا بالتعسف والعنف ، اذ (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي) (١١١) .

وقد كنت أعلم أن المسلمين تركوا الجهاد فذلوا ، وما كنت أعلم أنهم يريدون ترك حتى لفظة الجهاد وما يتبعها من كلمات ذات معانٍ اسلامية خاصة كالفتح ، بحجة أن الجهاد يحمل معنى الاعتداء وأن الفتح يحمل معنى الاستيلاء ،

(١٠٩) الآية الكريمة في سورة الفتح (٨ : ١) .

(١١٠) انظر التفاصيل في : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٥١٠ -

٥١١) - القاهرة - ١٣٧٨ هـ .

(١١١) الآية الكريمة في سورة البقرة (٢٥٦/٢) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

والجهاد والتتح لا يحملان مثل هذين المعنيين الا في فكر أعداء الاسلام وحدهم، وما معنى التحرير الا نقطة في بحر معاني الفتح، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ولما ترك المسلمون فرض الجهاد ، ضعفوا وذلوا واستهانت بهم الأمم ، وتفرقت كلمتهم وتشتت شملهم ، وأخذوا يقتلون فيما بينهم ، ونسوا أعداءهم الحقيقيين وشغلوا باخوانهم وأشقائهم ، حتى هانوا على أعدائهم ، وخسروا ما فتحوه بالتدريج .

لقد استعاد تقفور امبراطور الروم (نيقيفوريوس فوقاس ٩٦٣م - ٩٦٩م) المصيصة وطرسوس من المسلمين سنة أربع وخمسين وبلاثة الهجرية (١١٢م) ، فذكر ياقوت الحموي في كتابه : (معجم البلدان) وصفاً لاحتلال تقفور لمدينة طرسوس فقال : « فان تقفور ملك الروم استولى على الثغور ، فاستولى على المصيصة ثم رحل عنها ونزل على طرسوس ، وكان بها من قبيل سيف الدولة رجل يقال له : ابن الزيات ورشيح النسيمي مولاه ، فسلموا اليه المدينة على الأمان والصلح على أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين وورق أو خرثي (١١٣) ، ومالم يطلق حمله فهو لهم مع الدور والضياع . واشترط تخريب الجامع والمساجد ، وأنه من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فقل ، وان تنصر فله الجلاء والكرامة وتقر عليه نعمته وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها ، وملك تقفور البلد ، فأحرق المصاحف وخرب المساجد ، وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله مما كان جُمع من أيام بني أمية الى هذه

(١١٢) ابن الاثير (٨/ ٥٦٠) .

(١١٣) الخرثي : آثا البيت .

بلاد الروم

الغاية ودخل الروم الى طرسوس ، فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ، ثم يتوكل بياها ، ولا يطلق لصاحبها الا حل الخف^(١١٤) ، فان تجاوز منعه ، حتى اذا خرج منها صاحبها دخلها النصراني فاحتوى على ما فيها هذا والملوك كل واحد مشغول بحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا الفرض (يريد فرض الجهاد) ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفاية من عنده «^(١١٥)» ، وهكذا أصبح الطالب مطلوباً والسيد عبداً والعزير ذليلاً ، لأن المسلمين تركوا دينهم الذي قادهم الى النصر ، والى الوحدة والتوحيد ، وتخلوا عن فريضة الجهاد ، فتداعت عليهم الأمم .

أما في القرن الرابع عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) ، فقد خسر المسلمون ما فتحوه وأصبحت بلادهم مستعمرات للأجنبي ، واقتطع الصهاينة الأرض المقدسة من البلاد العربية .

واستر العد التنازلي ، حتى كانت سنة اثنتين وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٢ م) سنة مذابح مخيمات صبرا وشاتيلا في بيروت ومذابح الأشقاء اللبنانيين من المسلمين بأيدي الصهاينة وعلائهم .

أما في سنة ثلاث وأربعمائة وألف الهجرية (١٩٨٣ م) ، فقد كانت سنة اقتتال الأشقاء الفلسطينيين مع بعضهم في طرابلس اللبنانية ، ما أثلج قلوب الصهاينة وأعداء العرب والمسلمين .

(١١٤) الخف : كل شيء خف محمله .

(١١٥) معجم البلدان (٢٩/٦ - ٤٠) .

اللواء الركن محمود شيت خطاب

وحين قرأت ما كتبه ياقوت في معجم البلدان ، قلت لنفسي : « ما أشبه الليلة بالبارحة » .

ان عبرة فتح بلاد الروم يمكن اجمالها في أربعة دروس رئيسة : درسان من الروم ، ودرسان من العرب .

الدرس الأول من الروم ، هو أن الاستهانة بالعدو تقود الى الهزيمة ، ولا عذر بضعف العدو وقلته ، فالفئة القليلة المنظمة المستعدة ، تغلب على الفئة الكبيرة غير المنظمة وغير المستعدة . والدرس الثاني من الروم هو أن التناحر المذهبي ، يقود الى الاندحار ، لأنه يفتت الأمة ويحق التعاون فيما بينها في السلم والحرب .

والدرس الأول من المسلمين ، هو العودة الى الجهاد الاسلامي الذي هو الحرب العادلة بما فيها من مثل عثليا ووحدة واتحاد ، فما ترك الجهاد قوم الا ذلوا وتفرقوا . والدرس الثاني من المسلمين ، هو اتحادهم ، فما اتحدوا الا انتصروا ، وما تفرقوا الا انخذلوا ، وفوائد الوحدة لا تحتاج الى بيان .

كما تتعلم من هذه الدراسة درسين حيويين آخرين من المسلمين والروم : الأول هو أن الهجوم أنجح وسائل الدفاع ، وهو من الدروس السوقية التي تتعلمها من تاريخ الحرب قديماً وحديثاً بعامة ومن حرب المسلمين على الروم وحرب الروم على المسلمين بخاصة .

فقد شحن المسلمون الثغور بالمجاهدين الذين يرابطون في تلك الثغور للدفاع عنها وحصد هجوم الروم عليها شتاءً وصيفاً . وجعلوا من هذه الثغور

بلاد الروم

قواعد متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها في الصوائف للهجوم على مدن الروم القرية أو البعيدة ، بتصد انهار قوة المسلمين ومنعتهم ويقتطعهم ، وتريق حشود الروم وضربها في عقر دارها في حالة تحشدتها للتعرض بالبلاد الاسلامية قبل أن تعرض بالمسلمين ، وبذلك ينقلون ساحة المعارك من بلاد المسلمين الى بلاد الروم ، ويحملون الروم نتائج تلك المعارك مادياً ومعنوياً .

وكانت صوائف المسلمين تغزو بلاد الروم سنوياً ، مادام المسلمون أقوياء متحدين ، يتقبلون الجهاد ويثقلون عليه بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والعناء .

أما في حالة ضعف المسلمين وتفرقهم ، فإن الروم يغزونهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وكان الأسلوب التعرضي أنجح وسائل الدفاع بالنسبة للمسلمين والروم أيضاً .

وقد كانت الثغور آمنة مطمئة ، حين كانت عامرة بالمجاهدين والمرابطين للدفاع المحلي ، وبالصوائف التي تعبر الحدود سنوياً للدفاع السوقي عن الثغور وعن بلاد المسلمين . ثم أصبحت تلك الثغور غير آمنة ولا مطمئة بعد أن خلت من المدافعين عنها ، وتقاوس المسلمون عن غزواتهم الصيفية ، فأصبحت مكشوفة للروم ، واستطاعوا احتلال قسم منها ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل .

أما الدرس الحيوي الثاني ، فهو أن الروم ، لم يكونوا ضعفاء في أيام الفتح الاسلامي ، ولم يكن جيشهم ضعيفاً ولا قيادتهم ضعيفة ، كما يدعى الأجانب من المؤرخين القدامى والمحدثين .

الواء الركن محمود شيت خطاب

فقد كان الروم على جانب عظيم من الحضارة كما رأينا ، وكان جيشهم أقوى جيش في العالم ، وحسبه أنه دحر الجيش الساساني وانتصر عليه ، حتى هدد عاصمة ملكه ، واستعاد البلاد التي احتلها الفرس ، وأصبح القوة العالمية التي لا تنافس في حينه . كما كان هرقل امبراطور الروم المنتصر من ألمع قادة الروم وأكثرهم كفاية واقتدارا ، وقد أحرز بانتصاراته الباهرة على الفرس سعة في القيادة لا مثيل لها في أباطرة الروم . وهدف الذين يدعون أن الروم كانوا ضعفاء أيام الفتح الاسلامي واضح مفهوم ، فهم يريدون أن يسوغوا هزيمة الروم من ناحية ويهوّنوا من انتصار المسلمين من ناحية أخرى ، ولكن هدف الذين يرددون هذا الادعاء المتهافت غير واضح ولا مفهوم ، إلا أن يكون تقليدا لكل أجنبي أو جهلا بالواقع والتاريخ ، أو عمالة لأعداء العرب المسلمين ، أو بكل تلك الأسباب مجتمعة كأنها ظلمات بعضها فوق بعض .

لقد انتصر الفاتحون لأنهم كانوا مثوقين على الروم بسنوياتهم العالية التي غرسها الدين الحنيف في المسلمين الأولين ، وما أصدق خالد بن الوليد في قوله حين سمع رجلا يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » ، فأجابه فوراً : « بل ما أقل الروم ! وأكثر المسلمين !! انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان » .

وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين بانتصاراتهم الباهرة ، وما أعظمها وأبقاها من انتصارات .

مجموع الفتوح

التسلسل	اسم المدينة	اسم القائد	الملاحظات
١	انطاكية	أبو عبيدة بن الجراح	
٢	مرعش	خالد بن الوليد	
١	شحشاط	جيب بن مسلمة	من سيواس الى خليج القسطنطينية
٢	ملطية		بالتعاون مع سلمان بن ربيعة
٣	سيواس وقونية		
٤	اقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	سيواس	سلمان بن ربيعة	بالتعاون مع جيب بن مسلمة
٢	قونية		
٣	اقصرا حتى خليج القسطنطينية		
١	مرعش	محمد بن مروان بن الحكم	استعادة فتح مناطق هاتين المدينتين
٢	ملطية		
١	حصن بواق		
١	حصن الآخرم		
٢	حصن بولس		
٤	طوانة		
٥	حرثومة		
٦	حصن قسطنطين		
٧	حصن غزالة		
٨	عمورية		
٩	هرقلية		

مسلمة بن عبد الملك بن مروان

الترتيب	اسم المدينة	اسم القائد
١٠	قونية	
١١	الحمون الخمسة بسورية	
١٢	سوسة	
١٣	عاسة	
١٤	حصن الحديد	
١٥	برجة	
١٦	سندرة	
١٧	حصن الوضاح	
١٨	حصن ابن عوف	
١٩	سروا	
٢٠	حصن العقالة	
٢١	حصار القسطنطينية	
١	حصن سنان	عبدالله بن عبدالمك بن مروان بن الحكم
١	طرندة	
٢	الميصرة	
١	طوانة	
٢	الدولية	
٣	سقيساط	
٤	الريزانين	
٥	طرسوس (طولس)	
٦	قارطة	
٧	رسلة = دلسة = أواسي	

العباس بن الوليد بن عبدالمك بن مروان فتح طوانة مع مسلمة بن عبدالمك

التسلسل اسم المدينة اسم القائد
١ حصن غرارة عبدالعزیز بن الولید بن عبداللک بن فتحه مسلمة وأعاد عبدالعزیز لفتحہ

١ حصن الرامة داؤد بن سليمان بن عبداللک بن باصرة مسلمة بن عبداللک مروان

٢ حصن الأجرى

٣ حصن القسطنطينية

١ حصن طيبة

٢ حصن صلالة = صالو

٣ حصن البوة

٤ خروسة

٥ ديفس القرن

١ قونية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أعاد فتح هذه المدينة وله فتوح كثيرة في مناطق أخرى *

١ القسطنطينية محمد الفاتح

هرقل

ملك الروم

٢٦١٠ - ٢٦٤١

تولى هرقل الحكم بعد فوكاس ، فقد بعث هرقل حاكم افريقية للروم ابنه هرقل على رأس أسطول بيزنطي الى القسطنطينية ، فتوقفت السفن أثناء سيرها ببعض الجزر والموانئ البيزنطية ، ولقى هرقل الترحيب من جميع الناس . وفي ٣ تشرين الاول (أكتوبر) ٢٦١٠ ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية ، فتعالى الهتاف له ، على أنه مخلص البلاد ومنقذها . فعمل هرقل على التعجيل بانهاء حكم فوكاس . وفي ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٦١٠ ، تلقى هرقل التاج من يد البطريرك ، ثم أمر باعدام فوكاس وتحطيم تمثاله المقام في ميدان السباق .

وآلف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً الى أصل أرمني ، وحكم هرقل من سنة ٢٦١٠م حتى سنة ٢٦٤١م . ويعتبر هرقل من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي ، فهو على حد قول أحد المؤرخين ، الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى ، والذي اتخذ رومة مثالا له في الحكم ، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ، واتخذ المسيحية ديناً ومذهباً ، وأجرى في داخل الامبراطورية حركة تجديدية ناشطة ، وكانت بيزنطة قد ادخرت في ذاتها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتساعية سياسية ثقافية عسكرية .

وكان الصقالة قد استولوا على معظم ممتلكات الامبراطورية ، وأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، لاسيما داخلها ، اقلياً صقلياً . أما الفرس ، فأخذوا يتوغلون في الشرق الأدنى منذ سنة ٢٦١١م ،

فاستولوا على أنطاكية التي تعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية ، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق ، وشقوا طريقهم شمالا فاستولوا على حصن طرسوس وطرودوا البيزنطيين من أرمينية . وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع ، فجعلوا المدينة نهبا للحرق والمذابح ثلاثة أيام ، ودمر الحريق كنيسة القيامة التي شيدها قسطنطين الكبير ، وكان لهذا العمل رد فعل خطير في بيزنطة ، لاسيما أن الصليب المقدس (صليب الصلبون) الذي يعتبره المسيحيون أثمن المقدسات الدينية ، استولى عليه الفرس ونقلوه الى عاصمتهم المدائن .

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين ، بل امتدت سنة ٦١٢م الى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق البسفور ، وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية ، وبذلك تعرضت العاصمة لزحف العدو من جهتين : اذ زحف عليها من الشمال الصقالبة والآفار .

وشرع الفرس بغزو مصر ، فسقطت في أيديهم الإسكندرية سنة ٦١٩م ، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس .

وبدأ هرقل باجراء اصلاحات عسكرية وادارية شاملة ، وكان من نتائج هذه الاصلاحات تغلب الصفة العسكرية على ادارة الامبراطورية ، واعادة تنظيم القوات المسلحة ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات واضحة ملموسة ، فنهضت الامبراطورية من جديد ، وهزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هرقل التنظيمية وقيادته المتميزة .

كما أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الامبراطورية من النور والنجاح ، اذ جعلت كل ما لديها من ثروة تحت تصرف الحكومة ، وما كان في كنائس العاصمة والأقاليم من التحف المصنوعة من الذهب والفضة

جرى صهرها وسكها نقودا .

وقرر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس ، وطمى على الحرب في مستهلها جو من الحماسة الدينية التي لم تكن معروفة في العصور الماضية ، فكانت حربا صليبية سابقة على الحروب الصليبية المعروفة .

وفي يوم الاثنين ٣ نيسان (ابريل) سنة ٦٢٢ م ، غادر هرقل القائد العام للجيش البيزنطي العاصمة بعد أن أدى القداس ، وعبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث لجأ الى جهات الثغور البيزنطية ، فاجتمع له عدد كبير من الجند . وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند ، وعكف على دراسة الخطط العسكرية ، فابتكر أساليب جديدة منها ، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال ، وأبدى هرقل اهتماما كبيرا بالرماة من الفرسان .

وبدأ هرقل في الخريف حملته ، فشق طريقه الى ارمينية ، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضها ، فاتصر الروم على الفرس هناك انتصارا حاسما ، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف هرقل ، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو .

وفي سنة ٦٢٣ م سار هرقل الى ارمينية ، فأحرز انتصارات على الفرس هناك ، ثم توجه نحو الجنوب ، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير - أول ملوك الساسانيين - وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسية في فارس ، فلاذ كرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الروم ، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاما لما أنزله الفرس من قبل بيت المقدس من نهب وتخریب ، ووقع بيد هرقل عدد لا يحصى له من الأسرى .

ودارت خلال سنتي ٦٢٤ م و ٦٢٥ م معارك طاحنة في ارمينية بين الروم والفرس ، كانت الكفة راجحة فيها للروم على الفرس .

وفي سنة ٦٢٦م تعرضت القسطنطينية لهجوم مزدوج من الفرس والآفار، ولكن لم ينجح الهجوم واتصر الروم في نهاية المعارك .

وفي سنة ٦٢٧م ، شرع هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب متجها الى قلب بلاد الفرس ، وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) من هذه السنة أحرز انتصارا حاسما على الفرس في معركة نينوى الحاسمة التي قررت مصير النزاع بين الفرس والروم نهائيا في مصلحة الروم ، اذ أحرز البيزنطيون انتصارا باهرا على الفرس . وحلت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة .

وواصل هرقل زحفه المظفر ، وفي أول سنة ٦٢٨م استولى على داستاجرد مقر ملك فارس ، فأسرع الملك بالخروج منها ، مما أدى الى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم بعده ابنه ، وعقد الصلح مع هرقل .

وبمقتضى هذا الصلح ، استرد هرقل كل ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وارمينية وسورية وفلسطين ومصر ، وأعلن كسرى (شبرويه) أثناء مرضه الذي مات فيه ، بأن يكون هرقل وصيا على ابنه ، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أن الامبراطور البيزنطي ليس الا عبدا له ، فتغير الزمن وانعكس الوضع ، فأعلن شبرويه أن ابنه ووريثه في الحكم عبد للامبراطور البيزنطي هرقل ، وهكذا غير هرقل موازين القوى من حال الى حال ، فأصبح المغلوب غالبا ، والعبد سيدا .

وعاد هرقل الى عاصمته ، بعد أن غاب عنها ست سنوات ، فاستقبله ابنه على شواطئ آسيا الصغرى ، واستقبله بطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب ، يحصلون أغصان الزيتون والشعوع الموقدة ، يرتلون المزامير ، ويهتفون باسمه فرحا وسرورا .

ولما تحررت الاقاليم البيزنطية من الفرس، ارتحل هرقل وبصحبه زوجته، سنة ٦٣٠م ، قاصدا بيت المقدس ، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) سنة ٦٣٠م ،

وفي وسط مظاهر الفرح الغامر ، اقامة الصليب الذي كان قد غنسه الفرس في موضعه ، كما أعاد الى مواضعها كل ما جرى سلبه من الكنية ، واعتبر المؤرخون أن هذه الحرب أول حرب مقدسة شنها العالم المسيحي ضد غيرهم من غير المسيحيين .

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي والفارسي أيضا ، إذ أن معركة نينوى حطت قوة الفرس ، ولم يعد لفارس ما كان لها من الأهمية . أما الآثار ، فإن كبرياءهم هوت الى الحضيض بفضل ما أحرزه عليهم البيزنطيون من انتصارات في معركة القسطنطينية . وبلغت بيزنطة بما أحرزته من النصر ، ذروة القوة والمجد وذاع اسمها فيما وراء الحدود ، فأرسل ملك الهند الى هرقل يهنئه بالنصر ، وبعث له بهدية حاافلة من الأحجار الكريمة ، وأخذ دابرجت ملك الفرنجة الفراء لعقد صلح دائم مع الامبراطورية البيزنطية ، وأرسلت بوران ملكة فارس مبعوثا خاصا الى هرقل ليبرم معاهدة الصلح .

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحول في تاريخ الدولة البيزنطية من النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية ، إذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ ، وبدأ ما يصح اعتباره التاريخ البيزنطي ، وقد اتحد ظهور العنصر اليوناني وقوة المؤثر الكنسي ، فوهبا الامبراطورية مظهرا جديدا .

وحين بدأ الصراع بين العرب المسلمين من جهة والروم من جهة ، كان الروم أقوى دولة في العالم دون منازع ، يتوهم هرقل أعظم أباطرة الروم وقادتهم ، وكانت معنويات الروم قادة وجنودا عالية جدا بعد انتصارهم على الفرس والآفار ، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء وأعرف بأساليب القتال وأعظم تجربة عملية في الحرب ، وأكثر عددا وأغنى مددا ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرغم من قوة في جيوشهم وقادتهم لا من ضعف بهما كما يزعم قسم من المستشرقين وقسم من المستغربين .

وقد حاولت أن أسجل سيرة حياة هرقل الذي أرسل اليه النبي صلى الله عليه وسلم رسولا يدعوهم وقومه الى الاسلام . لكي أظهر تهافت ادعاء أولئك المستشرقين والمستغربين الذي يزعم أن انتصار العرب المسلمين كان لضعف الروم قيادة وجيشا ، ولم اعتمد على المصادر العربية والاسلامية في تسجيل هذه السيرة ، بل اعتمدت المصادر والمراجع الأجنبية ، حتى أبطل مزاعم المستشرقين والمستغربين ، وأبطل مايسكن أن يزعمه المقلدون لهم من انحياز المصادر العربية والاسلامية للعرب المسلمين على الروم وتحيزهم لبني جلدتهم وعقيدتهم على الروم ، وعلى كل فالحق ظاهر ولايسكن كتمانته ولو بعد حين .

وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١ م ، مات هرقل ، فارتجت القسطنطينية لموته ، وارتجت الامبراطورية البيزنطية خاصة والعالم المسيحي عامة لرحيله ، اذ فقدت المسيحية بسوته بطلا من أبطالها المعدودين : منقذ القدس من الفرس .

المراجع

التي ورد ذكرها - باختصار ، او باسهاب -

في :

كتب ، معجمات : بلغات اجنبية ، و مترجمة الى العربية

المقالات

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار :

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب :
 (*) ما كتب باللفات الأجنبية ، شيء كثير جداً ، مبني على الدراسة والملاحظة
 للأنار المنسوجة . والمختصون بشؤون المنسوجات قد ونوا هذا الموضوع
 في كتبهم ومجلاتهم المختصة .

صور من حضارة العراقي في العصور السالفة : صناعة الحياكة والنسج :
 الكوفية والمقال :

ملابس العراقيين وازياؤهم في العصور السالفة :

1. Baynes, N. H : The Byzantine Empire. London 1926.
2. Ostrogorowski, G : History of the Byzantine. Trans. Joan Hussey, Oxford 1956.
3. Vasiliev, A : The Byzantine Empire. Madison 1952.